المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

موريس ماتيرلنك

كنز البسطاء

ترجمة: أحمد فؤاد عبد المجيد عفيفى

مراجعة: شيرين عبد الحميد على أحمد

1637

كنز البسطاء

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1637
- كنز البسطاء
- موريس ماتيرلنك
- أحمد فؤاد عبد المجيد عفيفى
- شيرين عبد الحميد على أحمد
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

Le Trésor des Humbles

Par: Maurice Maeterlinck

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

كنز البسطاء

تـــألـيـــف: مـوريـس مـاتـيـرلـنـك
ترجمة وتقديم: أحمد فؤاد عبد المجيد
مـراجـعـــة: شيرين عبد الحميد على أحمد



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ماتيرلنك؛ موريس، ١٨٦٢-١٩٤٩
كنز البسطاء؛ تأليف: موريس ماتيرلنك؛ ترجمة وتقديم: أحمد فؤاد
عبد المجيد؛ مراجعة: شيرين عبد الحميد على أحمد
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
١٢٨ ص؛ ٢٤ سم
١- الفلسفة فى الأدب.
(أ) عبد المجيد، أحمد فؤاد (مترجم ومقدم)
(ب) أحمد، شيرين عبد الحميد على (مراجع)
(جـ) العنـوان ٨٠٩,٩٣٨

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٩٣١٨
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 704 - 311 - 3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعـريفه بها، والأفكـار التى تتضمنهـا هى اجتهـادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

مقدمة المترجم

ألّف هذا الكتاب الكاتب البلجيكى الأصل "موريس مايترلنك"، الذى صاغ أعماله باللغة الفرنسية، وقد وُلد فى مدينة جاند ببلجيكا سنة ١٨٦٢م، ومات سنة ١٩٤٩م فى مدينة نيس الفرنسية، وحصل على جائزة نوبل للآداب سنة ١٩١١م، ومنحه الملك البير Albert لقب نبيل سنة ١٩٣٢م، وهو أديب يجمع بين الرمزية والفلسفة والتصوف فى كل كتاباته، ويعتبر "مايترلنك" شاعراً ومؤلفًا مسرحيًا وباحثًا فى الوقت نفسه، فقد ألّف أكثر من خمس وعشرين مسرحية، وخمس عشرة دراسة وأربعة كتب ذات طابع علمى، وقام بترجمات لأعمال «روى بروك» "Ruysbrock"، و"نوفاليس" "Novalis"، وجون فورد "Jhon Ford"، وشكسبير، بخلاف قيامه بكتابة مقدمات لأعمال إيمرسون "Emerson"، و"سنيكا" و"سالازار".

وتنتسب عائلته إلى البورجوازية الفلامانية فى بلجيكا، وقضى طفولته متنقلاً بين مسقط رأسه وبين ضيعة أسرته فى "أوستاكر"، حيث كرّس أبوه نفسه لزراعة الزهور والأشجار المثمرة.

وبعد أن درس العلوم الإنسانية فى مدرسة "سان بارب" فى مدينة "جاند"، قام بدراسة القانون ثم ذهب إلى باريس واختلط فيها بالأوساط الأدبية، ونشر سنة ١٨٨٩م أول ديوان شعرى له ثم اقتحم بعد ذلك مجال المسرح الرمزى، الذى تميز بروح الغموض والبلاغة فى الأسلوب.

ثم توالت بعد ذلك أعماله الفلسفية الرمزية والصوفية، التى يتحدث فيها عن قوى علوية لا يمكن تفسيرها، وعن الموت الذى لا يعرف أحد ما إذا كان يخفى شيئًا آخر غير العدم.

ونلاحظ فى كتاب "كنز البسطاء" "le Trésor des humbles"، الذى صدر سنة ١٨٩٦م والذى قمنا بترجمته إلى اللغة العربية، أن الكاتب يحاول أن يكتشف فيه الطرائق التى تؤدى إلى حياة علوية. ويحتار النقاد فى أن يسموه متصوفًا أم فيلسُوفًا خاصة وأنه يبدو فيه كأنه شاعر يدعو إلى الجوانب المعنوية، التى تميز بها "بلوتون" "Ploton" ونوفاليس Novalis أو "روسبرك" "Ruysbroek"، الذين يدعون إلى أن نعرف أنفسنا ونحاول أن نفهم الآخرين.

وفى هذا الكتاب "كنز البسطاء" يحدثنا "مايترلنك" عن الإخلاص والحب دون أن يحسم ما يحيط بنا من غموض وألغاز، ولا يقدم "مايترلنك" أى آراء قطعية، لكنه يبدى أفكاراً عن المعجزات والفضائل، ووجود الذات والعواطف والفكر الصافى. وفلسفته فى كتاب "كنز البسطاء" تعتمد على موهبته فى تحليل الأحاسيس الغامضة، التى تتجلى فى علاقات فكرية غير معروفة، وتظهر فى كلامه عن الحياة والموت والصدفة والمستقبل، وعن الله وعن اللانهائية، كما لو كان يطمئن نفسه تجاه القلق والتشاؤم الذى يظهر – بصفة خاصة – فى مسرحياته. ويتحرر "مايترلنك" فى كتابه من القيود التى تعوق الرأى؛ ويبدو فيه كأنه فى صراع مستمر، كى يكتشف النور والحقيقة. وهو فى هذا يطرح أسئلة أكثر مما يقدم إجابات.

والجدير بالذكر أنه عند صدور كتاب "كنز البسطاء" سنة ١٨٩٦م لاقى نجاحاً كبيراً؛ لأن القراء اكتشفوا فى دراساته موضوعات مهمة مثل: الصمت وحوار النفوس والمأساة اليومية وغيرها، وهو ما سمح للكاتب أن يركز انتباهه على وجوه معنوية أثّرت فيه بعمق مثل الكتّاب السابق ذكرهم.

وقد اخترنا أن نقدم إلى القارئ العربى "كنز البسطاء"؛ لأن "ماتيرلنك" – الذى لا يعرفه الكثيرون من العرب – يقدم فيه عملاً مفتوحاً بمعنى أنه ينفتح على كل شىء ونقيضه؛ لأن المؤلف حرص على ألا يجد فيه القارئ فكرة توحد ما حولها. ولذلك فهو يتناول فى الوقت نفسه حديثًا عن الحرية الإنسانية وحتمية القدر والمثالية المفرطة،

وعن الجوانب الشكّية، والعظمة، وحدود البشرية وقوتها واستكانتها. وكل ذلك بأسلوب شديد الرصانة، بل والصعوبة أحياناً نظراً لاتجاهات الكاتب الرمزية والفلسفية والتصوفية والفكرية، مما يجعل من ترجمة هذا الكتاب عملاً ثرياً يضاف إلى مكتبة الترجمات العربية.

المترجم

أ . د . أحمد فؤاد عبد المجيد عفيفى

الفصل الأول

"الصمت"

صاح "كارليل"(١) قائلاً: ربما يتعين علينا أن نقيم للصمت والكتمان أماكن مقدسة عامة للعبادة. (هذا إذا كانت الأماكن فى هذه الأيام مثل تلك التى يشيّد الناس فيها أماكن العبادة المقدسة).

وقد كان كل ذوى الشأن الذين عرفتهم - وليس "جيوم(٢) لوتاسيترن" وحده، ومنهم من كان أقل كياسة، وأقل تحسباً للأمور منه، يمتنعون عن الثرثرة فيما كانوا يخططون له أو فيما يُبدعونه.

وأنت أيضًا حاول أن تُمسك لسانك لمدة يوم عندما تشعر بالحيرة بعض الشىء، وفى اليوم التالى سترى كيف صارت أهدافك، وواجباتك أكثر وضوحاً.

ومادمت لم تدخل الضوضاء غير المفيدة من الخارج، فلن تجد النفايات والروائح الكريهة إلى نفسك سبيلاً.

وليست الكلمة - فى الغالب الأعم - هى فن إخفاء الفكرة كما تقول اللغة الفرنسية، لكنها هى فن إخماد الفكرة وتعليقها بحيث لا يظهر منها شىء يتعيّن إخفاؤه،

---

(١) كارليل: هو توماس كارليل: مؤرخ وكاتب إنجليزى. ولد عام ١٧٩٥م، وتوفى عام ١٨٨١، وقد تأثر بالمثالية الألمانية، وشغف بسيرة الأبطال، وكتب رواية طويلة عن سيرته الذاتية، وكتاباً عن تاريخ الثورة الفرنسية. (المترجم)

(٢) جيوم: هو جيوم الأول دى ناصو. وُلدَ فى هولندا سنة ١٥٣٣، ومات سنة ١٥٨٤، وأطلق عليه لقب لوتاسترن، ومعناها قليل الكلام. (المترجم).

ورغم أن الكلمة عظيمة هى الأخرى؛ فإنها ليست أعظم شىء، ويؤكد أحد النقوش السويسرية أنه إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب، والأحرى أن نقول إذا كان الكلام هو الزمن؛ فإن الصمت هو الخلود. وإذا كان النحل لا يعمل إلا فى الظلام، كذلك الفكر لا يعمل إلا فى الصمت، وتعمل الفضيلة فى الخفاء.

ولا يجب أن نعتقد أن الكلام يستخدم على إطلاقه فى التواصل الحقيقى بين الكائنات، إذ يُمكن للشفاه واللسان أن يعبرا عن النفس بالطريقة نفسها التى يُعبر بها الرقم الرمزى أو الرقم التسلسلى عن لوحة زيتية للرسام "مملنك" **Memlinck** على سبيل المثال. والواقع أنه عندما يكون لدينا ما نقوله لأنفسنا، فإننا نضطر إلى السكوت. وإذا قاومنا – فى هذه اللحظات – المُقتضيات غير المرئية والعاجلة للصمت، فإننا نكون بذلك قد أحدثنا خُسارة فادحة لا يُمكن أن تُعوضنا عنها أكبر كنوز الحكمة الإنسانية، لأننا نكون قد فقدنا فرصة الاستماع لنفس أخرى، وفرصة إعطاء لحظة وجود لأنفسنا. وهناك كثير من مناحى الحياة، لكن الفُرص لا تتكرر مرتين.

ونحن لا نتحدث إلا فى الساعات التى لا نحيا فيها أو فى اللحظات التى لا نُريد فيها أن نرى إخواننا، أو فى تلك التى نشعر فيها بمسافة كبيرة بيننا وبين الواقع. وبمجرد أن نتحدث يُخبرنا شىء ما أن الأبواب الإلهية تُغلق فى جانب منها. ونحن بُخلاء جداً فيما يتعلق بالصمت، وأكثرنا حذراً لا يمتنعون عن الكلام عند أول قادم لهم. وتُخبرنا غريزة الحقائق الخارقة للقدرة الإنسانية، والتى نمتلكها جميعًا، أنه من الخطورة أن يصمت المرء مع من لا يريد معرفته أو محبته، لأن الكلمات تسرى بين الناس، لكن الصمت عندما يتفعّل، لا ينمحى أبداً إذا ما أُتيحت له الفرصة. ولا تُصنع الحياة الحقيقية التى تترك أثراً لها إلا فى الصمت. وأعلم أنه فى ظل هذا الصمت، الذى يجب أن نلجأ إليه حتى يشرح نفسه بنفسه، والذى لو أُعطيت له فُرصة النزول للحظة إلى نفسك حتى الأعماق التى تسكُنها الملائكة، والتى تُفكر فيها فى كائن تُحبه بعمق، لن تتذكر الكلمات التى قالها أو الحركات التى فعلها، لكن ستتذكر لحظات الصمت التى عشتها معه،

لأن نوعية هذه اللحظات هى وحدها التى أظهرت صفة حُبكما ونفسيكما، وأنا لا أقترب هنا إلا من الصمت الإيجابى، لأن الصمت السلبى ليس إلا انعكاسًا للنوم أو الموت أو لعدم الوجود. إننى أتحدث هنا عن الصمت الذى ينام ويكون أقل إفزاعًا وهو فى نومه من الكلام، لكن ظرفًا غير متوقع يمكن أن يوقظ هذا الصمت فجأة، ويكون هذا الظرف بمثابة شقيق له يمثل الصمت النشيط الكبير الذى يتوج به نفسه.

وينبغى أن نَحذر، فهناك نفسان تصعدان معًا، وستنهار السواتر وتتهدم الجسور، وستفسح الحياة العادية المكان لحياة يصبح فيها كل شىء جادًا جدًا بلا أى دفاع، ولا يكون هناك من يجرؤ على الضحك أو الطاعة أو النسيان.

ويحدث ذلك لأن أيًّا منا لا يجهل تلك القوة الغامضة وألاعيبها الخطيرة، التى تبعث فينا خوفًا شديدًا جدًا من الصمت، حيث إننا نتحمل بالكاد الصمت المُنعزل، أى صمتنا نحن. لكن صمت الكثيرين والصمت المُتعدد، خاصة صمت العامة، يعتبر عبئًا لا تفسير له، ونحن نستهلك جزءًا كبيرًا من حياتنا فى البحث عن الأماكن التى لا يسودها الصمت، فبمجرد أن يتقابل اثنان أو ثلاثة فإنهم لا يفكرون إلا فى إبعاد هذا العدو الخفى، فكم من علاقات صداقة معتادة لا تُبنى إلا على كراهية الصمت. وإذا نجح المرء رغم كل الجهود فى أن ينخرط بين كائنات مُجتمعة، فإنها ستدير رأسها بقلق إلى الناحية الرسمية من الأمور التى لا يلمحها أحد، ثم سرعان ما تغادر هذه الكائنات تاركة المكان للمجهول، وستتحاشى بعضها بعضًا فى المستقبل لأن تعاقب الأجيال سيكون مرة أخرى بلا جدوى، خشية أن يأتى جيل لا يكون من تلك التى تفتح الباب خلسة للخصم.

ومعظمنا لا يفهم ولا يقبل الصمت إلا مرة أو مرتين فى حياته، ولا يجرؤ على استقبال هذا الضيف الذى لا يمكن اختراقه إلا فى المناسبات الرسمية، ويستقبله عندئذ مُعظم الناس بكل احترام، لأن أكثر الناس بؤسًا لديهم فى حياتهم لحظات يعرفون فيها كيف يتصرفون، كما لو كانوا يُدركون من قبل ما تُدركه الآلهة، ولتتذكر اليوم الذى تعرفت فيه – دون خوف – على أول لحظة صمت. لقد دقت الساعة المُفزعة

وأتت إلى مقدمة نفسك. وقد رأيت الصمت يصعد من مزالق الحياة التى لا يعرفها أحد، ومن أعماق البحر الداخلى للجمال أو للفزع، ولم تُسرع أنت إلى الهرب. وكان ذلك بمثابة عودة للاستعداد للرحيل فى غمرة فرح كبير بجوار موت أو شبه تعاسة. تذكر هذه الدقائق التى تنكشف فيها جواهر خفية، وتقفز فيها الحقائق المغمورة. قُل لى عندئذ ما إذا كان الصمت حسنًا وضروريًا، وما إذا كانت مُداعبات العدو المُستمرة المُتتابعة ليست إلا مُداعبات ربانية. وإذا كان الصمت لا يُعانقنا إلا فى وقت التعاسة على الأخص، فإن عناق الصمت التعس لا يمكن أن ينسى نفسه، ولذلك فإن من ذاقوا العناق أكثر من غيرهم، يزيد قدرهم عن الآخرين، لأنهم ربما يعرفون وحدهم على أى مياه ساكنة وعميقة ترتكز قشرة الحياة اليومية الضعيفة. لقد تقاربوا من الله أكثر، فضلاً عن أن الخطوات التى خطوها بجانب الأنوار هى خطوات لن تبور؛ لأن الروح قد لا يُمكن أن تصعد لكن لا يمكن أبدًا إنزالها. ولا زال "كارليل" يصيح قائلاً:

«الصمت.. إمبراطورية الصمت العظيمة».

لقد عرف كارليل جيدًا إمبراطورية الحياة، التى تحملنا إلى «ما فوق النجوم، وإلى أعمق ما يحملنا إليه الموت»!

إن صمت النُبلاء من الناس المُتفرقين هنا وهناك، كلٌ فى إقليمه، مُفكرًا فى صمت، وعاملاً فى صمت لا تنشُره صُحف الصباح، وهم يُعتبرون بمثابة ملح الأرض نفسه، كما أن البلد الذى لا يُوجد فيه مثل هؤلاء الناس أو يقل وجودهم فيه لا يُعتبر بلدًا يسير فى الطريق الصحيح. إنها غابة ليس لها جذور، تحولت كلها إلى أوراق وغُصون، وسيتعين عليها – بعد قليل – أن تذبل وبالتالى لا تصبح غابة.

لكن الصمت الحقيقى العظيم الذى يصعب الاقتراب منه أكثر من الصمت المادى الذى يُحدثنا عنه "كارليل"، ليس أحد تلك الآلهة التى يمكن أن تتخلى عن البشر. إن هذا الصمت يُحيط بنا من جميع الجهات. وهو أساس حياتنا الخفية، وما أن يقوم أحدنا وهو يرتعش يدق أحد أبواب الهاوية، فإن الصمت الواعى نفسه هو الذى يفتح لنا دائمًا هذا الباب. وهنا أيضًا نكون جميعًا متساوين أمام أمر ليس له مقياس.

ويكون الصمت هو الملك أو العبد، فى مواجهة الموت، أو الألم أو الحب بالوجه نفسه. ويخفى هذا الصمت تحت عباءته المنيعة كنوزًا متماثلة. والسر فى ذلك هو الصمت، الذى يُعتبر أساسيًا وملجأ حصينًا لأرواحنا، هو استحالة فقدانه. ولو قابل أول مولود فى البشرية آخر سكان الأرض فإنهما سيصمتان بالطريقة نفسها فى غمرة المُعانقة أو عند الفزع أو عند الدموع. وسيتعاملان بالطريقة نفسها فى كل ما ينبغى فهمه دون خداع.

ورغم مرور قرون كثيرة، فإنهما سيفهمان فى الوقت نفسه - كما لو كانا قد ناما فى المهد نفسه - ما لا تقوله الشفاه قبل نهاية العالم. وعندما تنام الشفاه تستيقظ الأرواح وتبدأ فى العمل ؛ لأن الصمت هو العنصر المليء بالمفاجآت والأخطار والسعادة التى تمتلك فيها الأرواح نفسها بحرية. وإذا كنت تريد حقًا أن تُسلّم نفسك لشخص ما تخشى الصمت معه، فاتركه إلاَّ إذا كان هذا الصمت خشية خوف، أو خشية شُح بالحب الذى يتطلع إلى المُعجزات. وعندئذ ستكون نفسك على علم بمن تتمسك به، ويُوجد أناس لا يمكن لأكبر الأبطال منهم أن يصمت، كما توجد نُفوس أخرى ليس لديها ما تُخفيه وتنزعج - مع ذلك - من تلك النفوس التى تكتشفها.

وهناك نفوس أخرى لا تتمتع بالصمت، بل تقتل الصمت من حولها. وهى الكائنات الوحيدة التى تمر دون أن يلمحها أحد فى الحقيقة، ولا يمكن لهؤلاء البشر أن يعبروا المنطقة الكاشفة، أى المنطقة الكبرى للضوء الحقيقى الأصلى. وليس بوسعنا أن نُكوّن فكرة صحيحة عن شخص لم يصمت قط، إذ رُبما يُقال إن نفسه بلا شكل.

لقد كتب لى أحدهُم - ممن كنت أُحبهم - قائلاً: «إننا لا نزال نعرف بعضنا بعضًا ولا نتجرأ على أن نصمت معًا».

وقد كُنا نُحب بعضنا بعمق، فى الواقع، إلى درجة كُنا نخشى معها أن تُصيبنا محنة تفوق قُدرات البشر. وفى كل مرة كان الصمت يسود فيها بيننا كان يُعتبر بمثابة ملاك الحقائق العليا ورسول الحب المجهول. أما روحانا فكانتا تبدوان كأنهما تلتمسان الصفح، وتتمنيان أيضًا بضع ساعات من الأكاذيب البريئة، أو بضع ساعات من الجهل أو بضع ساعات من الطفولة.

ومع ذلك كان يلزم أن تأتى ساعة الصمت لأنها - بالنسبة لى - شمس الحب التى تُنضج ثمار النفس كما تُنضج الشمس الأخرى ثمار أرضنا.

ولا يخشى الناس الصمت بلا سبب، لأن أحداً لا يعرف أبداً على أى وجه ستكون صفة الصمت الذى سيحدث.

وإذا كانت الكلمات تتشابه، فإن أنواع الصمت تختلف. وفى مُعظم الأحيان تعتمد الأقدار على نوعية أول لحظة صمت بين روحين. ويحدث الخلط فى المفاهيم، ولا يعرف أحد أين سيحدث مثل هذا الصمت، لأن مستودعاته تفوق مستودعات الفكر، كما أن الصمت غير المتوقع يصبح كالمشروب، إما شديد المرارة أو شديدة الحلاوة. ويمكن أن ينتج عن نفسين متساويتين، فى القوة وفى الإعجاب بهما، صمت عدائى، وتنشب بينهما فى الظُلمات حرب طاحنة بدلاً من أن تأتى نفس شيطانية لتصمت، بالقدرة الإلهية، مع نفس عذراء.

ولا يمكن للمرء أن يعرف شيئًا مقدمًا ؛ لأن كل شيء يحدث فى سماء لا تُنبئ به أبداً، ولهذا فإن أرق العُشاق يُؤخرون غالبًا - وحتى الساعات الأخيرة - استكشاف أعماق كيانهم، لأنهم يعرفون أيضاً أن الحب الحقيقى يجرف معه أبسط الأشياء وسط الحياة، وأن كل ما يتبقى ليس إلا لعب أطفال حول سياج هذا الحب. لكن سرعان ما تسقط الحواجز وينفتح الوجود، ويكون صمتهم مساويًا لصمت الآلهة التى تسكن فى أعماقهم. وإذا لم يتفاهموا فى لحظة الصمت الأولى، فإن نفوسهم لا يُمكن أن تُحب بعضها بعضًا؛ لأن الصمت لا يتجول، وإذا كان يمكنه الصعود أو الوجود بين نفسين، فإن طبيعته لا تتغير أبداً. وإلى أن يموت العُشاق سيكون للصمت الوضع نفسه والشكل نفسه والقوة نفسها، التى اكتسبها منذ أن دخل فيها إلى الغُرفة أول مرة.

وبقدر ما يسير المرء فى الحياة سيلاحظ أن كل شيء يتم، كما لو كان هناك تفاهم مُسبق لا يتحدث أحد عنه بكلمة ولا يُفكر فيه. ومع ذلك يعرف الجميع أن هذا التفاهم حدث فى مكان ما فوق رؤوسنا، فليبتسم أقل الناس فاعلية عند المقابلات الأولى كما لو كان قد اشترك من قبل فى تحديد مصير إخوانه.

وفى مجالنا هذا، نجد أنه - حتى أولئك الذين يتحدثون بعمق أكبر - يشعرون أفضل من غيرهم بأن الكلمات لا تُعبر مُطلقًا عن العلاقات الحقيقية أو العلاقات الخاصة بين شخصين.

وإذا كُنت أُحدثك فى هذه اللحظة عن أمور خطيرة مثل الحب والموت والقدر، فإننى لا أصل إلى الموت أو الحب أو القدر؛ لأنه على الرغم من كل جهودى، فستبقى بيننا حقيقة لا نتحدث عنها، قد تكون هى الحقيقة الوحيدة التى لم تظهر رغم أنها تعيش للحظة بيننا، ولم نستطع أن نتركها لنُفكر فى غيرها.

إنها حقيقة الموت والقدر والحب، التى لم نستطع أن نُدركها إلا فى الصمت، وليس فى شىء آخر سوى الصمت.

وقد قالت طفلة فى إحدى الحكايات الخُرافية عن الجن:

«يا أخواتى.. إن لكل منكن فكرها الخفىّ، وأُريد أن أعرف هذا السر».

ونحن أيضًا نمتلك شيئًا نريد أن نعرفه، لكنه يختفى إلى أعلى مثل الفكرة الغامضة... إنه صمتنا السرى. والتساؤلات هنا لا جدوى منها ؛ لأن أى تحرك للفكر سيكون عقبة فى سبيل الحياة الأخرى التى تُوجد فى الخفاء. ولكى نعلم ما هو موجود فى الحقيقة، يجب تدعيم الصمت فيما بيننا ؛ لأنه بالصمت وحده تنفتح للحظة زهور غير متوقعة وخالدة يتغيّر شكلها ولونها طبقًا للنفس الموجودة بقربها.

وتزن النفوس نفسها بالصمت مثلما يوزن الذهب والفضة بعد غمرهما فى الماء النقىّ، ولا تَكتسب الكلمات التى ننطق بها معناها إلا بفضل الصمت الذى تنغمس فيه.

ولو قُلت لأحد ما إننى أُحبه، فربما لا يفهم ما سبق أن قُلته لألف غيره. وإذا كُنت أُحبه، فى الواقع، فإن الصمت الذى سيحدث، سيظهر إلى أى مدى تنغمس جذور كلمة الحُب اليوم، والتى سينتُج عنها بدورها تأكيد صامت لهذا الحب. ولن يكون هذا الصمت وهذا التأكيد متماثلين لمرتين فى حياة واحدة.

أليس الصمت هو الذى يعرّف ويُحدد طعم الحب!؟ ولو حُرم الحب من الصمت، فلن يكون له طعم ولا رائحة مُطلقًا. من منا لم يعرف هذه الدقائق الصامتة التى قد تفصل بين الشفاه لتجمع النفوس!؟

يجب أن نبحث عن هذه الدقائق بصفة مُستمرة، ولا يوجد صمت أحلى من صمت الحب. وهذا الصمت من خصائصنا وحدنا.

أما أوجه الصمت الرهيب الأخرى مثل صمت الموت والألم والقدر، فإنها ليست لنا وإن كانت تجيء إلينا من أعماق الأحداث فى الساعة التى نختارها.

والذين لا يتعرضون لها ليس لديهم ما يُلامون عليه، لكننا نستطيع أن نخرج لملاقاة صمت الحب بأنواعه المنتظرة صباحًا ومساءً على عتبة البيت، ولهذه الأنواع جمال مثل جمال مثيلاتها من الأنواع الأخرى، والتى بفضلها يُمكن أن يعيش أولئك الذين لم يعرفوا البكاء مع باقى النفوس الشاعرة بالتعاسة الشديدة.

ولذلك فإن الذين يحبون كثيراً يعرفون أيضًا أسراراً لا يعرفها الآخرون، لأنه يوجد، فى الجانب الخفى من الصداقة والحب العميق الحقيقى، آلاف وآلاف من الأشياء التى لا يُمكن لشفاه أخرى أن تكتمه....

الفصل الثانى

"يقظة الروح"

ربما سيأتى وقت - وأمور كثيرة تتنبأ بقربه - سيأتى وقت نتأمل فيه أرواحنا نفسها دون تدخل من حواسنا. ومن المؤكد أن مجال الروح يتسع كل يوم أكثر فأكثر، وتكون الروح أكثر قرباً من كياننا المرئى ويتزايد إسهامها فى أعمالنا كما حدث منذ قرنين أو ثلاثة. وقد يُقال إننا نقترب من فترة روحية، حيث يوجد فى التاريخ عدة مراحل مشابهة، خضعت فيها الروح لقوانين غير معلومة. وإذا صح القول، فإنها ترتقى إلى سطح البشرية، ويتبين - بشكل مباشر - وجودها وقوتها. ويمكن أن تتكشف هذه القوة بآلاف الطرائق المختلفة غير المتوقعة. وفيما يبدو كانت الإنسانية على وشك أن تتخلص قليلاً من حمل المادة الثقيل بحيث يسود فيها نوع من المواساة الروحية، وتصبح قوانين الطبيعة - الأكثر تشدداً والأكثر صرامة - مرنة بشكل أو بآخر، ويكون الناس أكثر قرباً من أنفسهم ومن إخوانهم، وسينظرون إلى أنفسهم ويحبونها بجدية وخصوصية أكبر؛ ذلك لأنهم سيفهمون بكل رقة وعمق الطفل والمرأة والحيوانات والنباتات والأشياء الأخرى. وقد لا تكون التماثيل والرسومات والكتابات التى تركوها لنا كاملة، لكنى لا أعرف أية قوة وأى جمال خفى يوجد فيها ويعطيها حيوية مستمرة إلى الأبد. وللكائنات نظرات أخوة وآمال غامضة. ونجد إلى جانب الآثار العادية للحياة التى توجد فى كل مكان آثاراً غير واضحة لحياة أخرى لا يفسرها أحد. وما نعرفه عن مصر القديمة، يسمح لنا أن نفترض أنها قد مرت بواحدة من هذه الفترات الروحية، كما أنه فى عصر قديم جداً من تاريخ الهند، كان على الروح أن تقترب من سطح

الحياة بدرجة لا تتجاوزها أبداً، وما تبقى من وجـودها المباشر أو ذكرياتها لا يزال يبين - حتى اليوم - ظواهر عجيبة. وفى لحظات أخرى، يبدو العنصر الروحى كأنه يصارع الإنسانية فى أعماقها مثلما يصارع الغريق مياه نهر عظيم.

وتذكروا - على سبيل المثال - فارس والإسكندرية وقرنين دينيين فى العصور الوسطى. وفى المقابل، توجد قرون بأكملها يسود فيها الذكـاء والجمال بكل نقائه، لكن لا تظهر فيها الروح مطلقًا. ولذلك، فإن الروح كانت شديدة البعد عن بلاد الإغريق وروما، وعن القرنين السابع العشر والثامن عشر فى فرنسا، كما إنها بعيدة على الأقل من سطح القرن الأخـير؛ لأن "كلود دى سـان مـارتان Claude de Saint Martin" و"كاجليسترو Cagliostro" - وهو أشد صرامة مما نظن - و"بسكاليس Pascalis"، وكثير غيرهم مازالوا يخفون عنا أسراراً كثيرة عن أعماق هذه الروح.

ولا نعرف لأمر ما، لماذا انقطعت العلاقات الخفية بين الأرواح؟ ولماذا أغلق الجمال عيونه؟ ومن الصعب جداً أن نعرب هنا بالكلمات عن الأسباب، التى من أجلها لا يبدو معها المصير أو القدر، الذى يحيط بالمسرحيات اليونانية ويعبر عن ماهية مناخ الروح. وفى أفق هذه المسرحيات التراچيدية الجديرة بالإعجاب، نكتشف سراً دائمًا وجديراً بالاحترام، لكنه ليس السر الأخوى الرقيق النشيط الذى نراه - فى كثير من أعمال أخرى - أقل أهمية وأقل جمالاً. ونتساءل فيما بيننا، عما إذا كان "راسين Racine" هو شاعر قلب المرأة بلا منازع، لكن من يجرؤ أن يقول لنا إنه تقدم خطوة نحو روحها؟ بماذا ستجيب لو سألتك عن روح "أندروماك Andromaque" أو "بريتانكوس Britannicus"؟ خاصة وأن شخصيات راسين لا تتفاهم فيما بينها إلا بقدر ما تعبر عنه، وليس ثمة كلمة تخترق جسراً بحرياً بينهم. فهم شديدو الوحدة مع أنفسهم على سطح كوكب ما لم يعد يدور فى السماء. وهم لا يمكنهم الصمت، إذ ربما لا يوجدون فيما بعد. وليس لهم مبدأ غير مرئى، وقد يعتقد البعض أن ثمة مادة عازلة تقف حائلاً بينهم وبين فكرهم، وبين الحياة التى تتعلق بكل ما هو موجود، وبين تلك الحياة التى لا يحدث تأثيرها إلا فى لحظة عابرة من عاطفة أو ألم أو رغبة. والحقيقة، أنه انقضت قرون نامت فيها النفس دون أن تثير قلق أى شخص. أما اليوم، فإنه من الواضح أن الروح تبذل

جهوداً كبيرة حتى تظهر فى كل مكان بشكل غير معتاد أو بشكل عشوائى، كى تفرض نفسها كما لو كان صدر إليها أمر بذلك، أو لم يعد لديها وقت تضيعه، إلا أن ذلك يستلزم أن تعد نفسها لمعركة حاسمة، لا يمكن لأحد أن يتنبأ بما يترتب عليها من انتصار أو فرار. وقد لا تكون الروح قد استجمعت قواها المختلفة، التى لا يمكن معها المقاومة أبداً.

وقد يقال إن الروح تحصر نفسها فى جدار غير مرئى بحيث لا يعرف أحدٌ ما إذا كان هناك احتضار لها، أو حياة جديدة تبعث فيها. ولن أتحدث عن القوى الخفية التى تستيقظ حولنا، أو عن الجاذبية وتوارد الخواطر والترفع، أو عن الخصائص المؤكدة للمادة المشعة أو عن ألف مظهر آخر من تلك التى تهز العلوم الرسمية، لأن هذه الأشياء معروفة من الجميع ويمكن ملاحظتها بسهولة، بل إنها قد لا تعتبر شيئًا إلى جانب ما يبدو فى الحقيقة، لأن النفس مثلها مثل النائم الذى ينهض من أحلامه ويبذل جهداً كبيراً، كى يحرك ذراعًا أو يرفع جفنًا.

وفى مناطق أخرى حيث يقل انتباه الجماهير، تتحرك الروح بشكل أفضل، رغم أن حركتها لا تكون محسوسة بشكل كبير فى نظر من لم يتعود على الرؤية. أليس يُقال إن صوت الروح على وشك أن يخترق بصيحة كبيرة آخر أصوات الخطأ، التى لا تزال الموسيقى تغلفه. ألا يشعر المرء بثقل الحمل المقدس لوجود ما غير مرئى فى أعمال بعض الرسميين الأجانب؟ وأخيراً ألا نلاحظ فى الآداب أن بعض القمم تشع هنا وهناك ضوءاً تختلف طبيعته عن أغرب الأضواء فى الآداب السابقة؟ إننا نقترب من تغيرات لا أعرف كونها من الصمت، ومن التسامى الإيجابى الذى ساد حتى اليوم والذى يبدو على وشك الانتهاء، ولا أتوقف عند هذا الأمر، حيث إنه من المبكر جداً أن أتحدث بوضوح عن هذه الأشياء، وإن كنت أعتقد أنه نادراً ما تكون هناك فرصة ملحة أمام إنسانيتنا لتتحرر روحيًا. بل إنه فى بعض اللحظات يتشابه الأمر كأنه إنذار. ولذلك، فإنه من المهم ألا نغفل شيئًا كى ننتهز هذه الفرصة، التى ستهددنا، التى تشبه طبيعة الأحلام التى تذهب بلا عودة إن لم يدركها المرء فوراً ويجب أن نكون حذرين،

لأن روحنا لا تتحرك دون سبب. لكن هذه الحركة التى لا نلاحظها إلا على قمم الجبال المرتفعة الافتراضية للوجود، ربما تظهر أيضًا دون أن يشك أحد فيها، فى أكثر الدروب الاعتيادية للحياة، لأنه لا توجد أى زهرة تتفتح على هذه المرتفعات دون أن ينتهى بها الأمر إلى السقوط فى الوادى، ولا أعرف، فربما تكون قد سقطت من قبل. ألا تلاحظ دائمًا فى الحياة العادية وبين أبسط الكائنات وجود علاقات غامضة، ومباشرة وظواهر روحية وتقارب فى الأرواح لم يكن ممكنًا الحديث عنها فى أزمنة أخرى، فهل كانت هذه العلاقات غير معروفة قبلنا؟ يجب أن نصدق ذلك؛ لأنه فى جميع العصور، كان هناك من ذهبوا إلى عمق أكثر العلاقات سرية فى الحياة، ونقلوا إلينا ما تعلموه عن القلوب والعقول والأرواح فى زمنهم. ومن المحتمل أن هذه العلائق نفسها كانت لا تزال موجودة عندئذ، لكن ليس بوسعها امتلاك القوة الحديثة والعامة التى توجد لها فى هذه اللحظة، ذلك لأن هذه العلاقات لم تكن قد تغلغلت إلى عمق الإنسانية، لأنها دون هذا التغلغل، توقف نظرات الحكماء إليها، حيث صمتوا عنها. ولم أتحدث هنا عن (الروحانية العلمية)، وعن مظاهرها فى توارد الخواطر أو فى المادية، أو فى المظاهر الأخرى التى سأحصيها الآن، ذلك لأن الأمر لا يتعلق بمجرد أحداث.

دخلت النفس وأحدثت قتامة للكائنات التى نسيت حقوقها الأبدية تمامًا، وهناك سيكولوچية أخرى غير السيكولوچية المعتادة، التى اتخذت اسم **Psyché** (بسيشه) غير أنها فى الحقيقة لا تهتم إلا بالمظاهر الروحانية الضيقة المتعلقة بالمادة. وباختصار، يتعلق الأمر بما ينبغى أن تظهره لنا السيكولوچية الشفافة، التى تنشغل بالعلاقات المباشرة بين روح بشرية وأخرى وبين الإحساس والوجود غير المعتاد لروحنا.

وقد بدأت بالكاد تلك الدراسة التى تسمو بالإنسان، والتى ستجعل السيكولوچية البدائية، التى سادت حتى الآن غير مقبولة. ويشمل علم النفس المباشر أكبر الأشياء وأصغرها، ويلاحظ وجوده حتى فى أقل الكتابات قدراً. وليس هناك ما يدل بوضوح كبير على أن الضغط، الذى تمارسه الروح قد تزايد نموه بالإنسانية بصفة عامة، أو أنه قد انتشر فى فاعليتها الغامضة. وسنتعرض هنا لأمور قد يعجز الإنسان عن وصفها بحيث لا يمكن للمرء أن يعبر عنها إلا بأمثلة غير كاملة أو غير دقيقة. وأنا أقدم هنا

مثالين أو ثلاثة بصفة أولية، ففى الماضى كان الحدس والانطباع عن مقابلة أو نظرة أو قرار يتخذ من جهة غير معلومة من العقل البشرى، أو مداخلة أو قوة لا تفسير لها وإن كانت مفهومة أو قوانين خفية للاستلطاف أو للسماجة أو للمشاعر الفطرية، أو المكتسبة أو تأثيرات لأمور لا يمكن الحديث عنها، كل ذلك كان يحدث لبرهة.

ولن نتوقف هنا عند هذه المشكلات التى تفرض نفسها لتسبب قلقًا للمفكر، ولا يبدو أننا نقابلها إلا بمحض الصدفة. وليس هناك شك فى أهميتها الدينية، التى تسيطر باستمرار على الحياة، وتدفع الناس إلى العودة إلى التفاعلات المعتادة للمشاعر والأحداث الخارجية.

ويقلق أصغر الناس اليوم من تلك المظاهر الروحية، التى كان ينشغل بأكبرها وأكثرها إثارة للفكر إخواننا فيما سلف. وذلك يبرهن مرة أخرى على أن النفس البشرية هى بمثابة نبات يتمتع بوحدة كاملة، لأن كل فروعه تزدهر فى الوقت نفسه حين يجىء الآوان. وربما يعبر الفلاح، الذى يمتلك موهبة التعبير عما يجيش فى نفسه، عن أشياء لا توجد لدى نفسية "Racine راسين". وهكذا فإن رجالاً تقل عبقريتهم عن عبقرية شكسبير، أمضوا حياة مضيئة لا يعلمها أحد وإن كان أساتذتهم قد عرفوها ولم تكن بالنسبة إليهم سوى انتكاسة، إذ إنه لا يكفى أن تتفاعل النفس الكبيرة المنطوية هنا أو هناك مع الزمان أو المكان، لأن الناتج من هذا التفاعل لن يكون كبيراً، إذا لم يقم أحد بمساعدتها.

ويتعين أن تصل النفس إلى اللحظة التى تثير قلق محيط الأرواح كلها، وإذا جاءت لحظة النعاس ؛ فإن تلك النفس لن تتحدث عن أحلام النوم.

وقد سار "هاملت Hamlet"، وهو مثال مألوف لدينا فى مسرحية " Elseneur السينير" حتى اللحظة التى كان فيها على وشك الاستيقاظ، ومع ذلك، ورغم العرق البارد الذى كان ينزل من جبهته الشاحبة، فقد كانت توجد كلمات لا يستطيع التحدث بها إلينا وإن كان يمكنه بلا شك أن ينطق بها اليوم، لأن ما يمر به من نفس متشردة أو متلصصة، يساعده على الكلام. وقد يتلعثم هاملت حاليًا إذا نظر إلى "كلوديوس Claudius"

أو إلى أمه ما لم يعلم أنه لا يمكن للأرواح - فيما يبدو - أن تنغلق على نفسها وتضع السواتر. والواقع أن تلك حقيقة مقلقة وغريبة. ألا تعلم أيها الإنسان أنه إذا لم تكن طيبًا، فإن من المرجح أن تزيد معرفتك لهذه الحقيقة مائة مرة عما كانت منذ قرنين أو ثلاثة؟ ألا تعلم أنك لو أحزنت نفسًا واحدة هذا الصباح، فإن الفلاح الذى تتحدث معه عن العاصفة والأمطار كان يعرف ما ستقول له من قبل ولو كان لك وجه قديس أو شهيد أو بطل، فإنك لن تستطيع أن تعرف ما فى عين الطفل الذى يرمقك بنظرة لا تستطيع تفسيرها أو الوصول إليها إذا كانت عندك فكرة سيئة أو ظلم أو دموع ذرفها أخ لك، حيث إنه من المحتمل أن تكون روحه قد مرت منذ مائة سنة بجوار روحك التى لا تنتبه إليه...

وفى الحقيقة، فإنه من الصعب أن توجد فى قلب المرء - بعيداً عن النظرات - كراهية أو حسد أو خيانة؛ لأن نفوسًا كثيرة ستأخذ حذرها من وجودنا، ولم يحدثنا أجدادنا عن حدوث مثل هذه الأمور. إلا أننا نلاحظ أن الحياة التى نتفاعل معها تختلف تمامًا عن تلك الحياة التى صوروها.

فهل خدعونا أم أنهم كانوا لا يعرفونها. ذلك لأن الإشارات والكلمات لم تعد تصنع شيئًا، لأن كل شىء يتكرر فى الأوساط الروحية التى يوجد فيها شىء مجرد.

وبدورها، فإن الإرادة القديمة والعتيقة التى نعرفها جيداً، وهى منطقية جداً، فهى تتغير وتتأثر بالاتصال المباشر بالقوانين التى لا تفسير لها رغم عمقها. ولم نعد نجد ملجأ نلجأ إليه أو نلاحظ تقاربًا بين الناس، حيث أخذوا يحكمون على أنفسهم بظاهر القول وبظاهر الأعمال بل وحتى بظاهر الأفكار، لأن ما يرونه دون فهم له يتجاوز مجال الأفكار. وتلك هى إحدى العلامات الكبرى التى نشهد فيها الفترات الروحية التى أتحدث عنها أحيانًا. ونشعر، من جميع الجهات، أن علاقات الحياة العادية بدأت فى التغير، كما أن من أصغر منا يتحدثون ويتصرفون بطريقة تختلف عما كان يفعله الناس فى جيل سابق. وقد سقطت مجموعة من الحواجز والغرف والوسائط غير المفيدة إلى الهاوية، ولم نعد نستطيع الحكم عليها تقريبًا، ولا ندرك شيئًا إلا من خلال ما هو غير مرئى.

ولو دخلت إلى حجرتك لأول مرة فلن تنطق بشيء، طبقًا لقوانين علم النفس الأكثر علمية وعمق، وذلك بفعل حكم خفى يصدره إنسان على وجود إنسان آخر. وليس بوسعك أن تذكر لى أين ذهبت لتعرف من أكون، لكنك ستخبرنى ببعض أمور مؤكدة لا يمكنك التعبير عنها، وربما يصدر أبوك علىّ حكمًا مختلفًا قد يكون غير صحيح. ويجب الاعتقاد مع كل ذلك بأن الإنسان سيتواصل قريبًا مع أخيه الإنسان، وإن المناخ سيتغير. فهل قمنا كما يقول الفيلسوف الكبير غير المعروف "كلود دى سان مارتان Claude de Saint Martin" بخطوة أخرى على طريق التعلم المضىء لبساطة الكائنات؟ انظر فى صمت إذ ربما تلاحظ – عما قريب – "همهمة الآلهة".

الفصل الثالث

"أصحاب البصيرة"

يعرفهم معظم الناس ورأتهم تقريبًا كل الأمهات، ولا غنى عنهم تمامًا مثل الآلم. والذين لم يقتربوا منهم يكونون أقل لطفًا وأقل حزنًا وأقل طيبة.

إنهم غرباء ويبدون أكثر قربًا من الحياة من أطفال الآخرين، ولا يتشابهون فى أى شيء ومع ذلك، فإن عيونهم واثقة من نفسها إلى الحد الذى تعرف فيه كل شيء، وتبوح بأسرارها عند كل مساء. وفى اللحظة التى يكون فيها إخوانهم يتحسسون الميلاد والحياة حولهم، يكونون قد تعرفوا على أنفسهم من قبل وهم واقفون فعلاً وأيديهم وأنفسهم على أتم استعداد. وعلى عجل، وبالحكمة والدقة، استعدوا للحياة، وهذه العجلة هى إشارة إلى أن الأمهات تتجرأن بالكاد على النظر دون علمهم بأسرار كل ما يُقال.

وغالبًا لا يكون لدينا الوقت لنلاحظهم ؛ لأنهم يذهبون دون أن يقولوا شيئًا، يظلون إلى الأبد غير معروفين لنا، لكن البعض الآخر منها، قد يتأخرون قليلاً وينظرون إلينا وهم يبتسمون وعلى وشك أن يعترفوا بأنهم فهموا كل شيء، وعند سن العشرين يبتعدون بسرعة ويخفون خطواتهم كما لو كانوا قد اكتشفوا للتو أنهم أخطأوا المكان وأن عليهم أن يقضوا حياتهم بين بشر لا يعرفونهم.

وهم أنفسهم لا يقولون شيئًا تقريبًا ويحيطون أنفسهم بغلالة فى الوقت الذى يحسون فيه أنهم قد جرحوا، أو فى الوقت الذى يوشك فيه الإنسان على الوصول إليهم. ومنذ بضعة أيام، بدا أنهم موجودون وفجأة وفى هذا المساء كانوا بعدين عنا إلى درجة

أننا لا نجرؤ على التعرف عليهم، ولا على استجوابهم، لأنهم هناك على الجانب الآخر من الحياة تقريبًا. وندرك فى النهاية أنها الساعة التى حانت أخيراً، لكى نؤكد فيها شيئًا أكثر جدية وإنسانية وواقعية وأكثر عمقًا من الصداقة والصدفة والحب، وهو أمر يضرب بجناحه - حتى الموت - فى أعماق الحنجرة، ونحن نجهله ولا نذكره أبداً، لأنه ليس من المستطاع بعد ذلك أن نذكره؛ لأن كثيراً من النفوس تمضى وقتها فى الصمت...

ويمر الوقت بسرعة ومن منا لم ينتظر هكذا إلى اللحظة، التى لا تستطيع أن نقدم فيها جوابًا.

لماذا أتوا، ولماذا يذهبون، ألم يولدوا إلا لكى يؤكدوا لنا أن الحياة ليس لها هدف؟ وما فائدة التفاؤل إذا لم يكن يوجد مطلقًا أى رد. وفى مرات عديدة، كنت شاهداً على هذه الأمور، التى كنت قد شاهدتها يومًا ما لدرجة أننى لم أعد أعرف أن الأمر يتصل بى أم بشخص آخر، وهكذا مات أحد الأخوة. ربما قيل إنه الوحيد الذى تنبأ بالموت دون أن يعرفه، وذلك فى الوقت الذى ربما كنا نعرف فيه شيئًا ما دون أن نتلقى هذا التحذير العضوى، الذى كان خافيًا منذ الأيام الأولى. بأى شىء نميز الكائنات التى يؤثر فيها حادث شديد الخطورة؟ لا شىء يُرى وإن كنا نرى كل شىء. إنهم يخافون منا لأننا ننذرهم باستمرار، ورغمًا عنا حالما نقترب منهم، يشعرون أننا نتصرف ضد مستقبلهم، أو أننا نخفى أمراً ما عن الكثير من الناس، ونجهل نحن ما نخفيه عنهم. وتحدث بين كائنين يتقابلان للمرة الأولى أسرار عجيبة عن الحياة والموت، وأسرار أخرى ليس لها مسمى لكنها تسيطر فى الحال على موقفنا، وعلى نظراتنا وعلى وجهنا وعندما نشد على أيدى صديق يكون فى نفسنا فضول لا يتوقف عند عتبة هذه الحياة، وقد يحدث ألا توجد فكرة سيئة بين اثنين من الناس، لكن توجد أمور أكثر أهمية وأكثر عمقًا من الفكر. ونحن لا نسيطر على هذه المعطيات المجهولة، كما أننا نكشف دائمًا أمر أى نبى لا يعرف كيف يتحدث - ولا نكون أبداً مع الآخرين كوجودنا معهم فى الظلام، كما أن نظراتنا تتغير طبقًا للماضى والمستقبل اللذين يلاحظانهم،

ولذلك فإننا نعيش دائماً فى حالة ترقب، وعندما نقابل أولئك الذين لن يعيشوا، فإنهم لن يكونوا أولئك الذين نراهم، لكن نرى ما سيحدث لهم. وقد يريدون خداعنا ليخدعوا أنفسهم ويفعلوا أى شىء ليضللونا، ومع ذلك، ومن خلال ابتسامتهم وحماسهم للحياة، فإن الأمر يبدو كأنه كان سنداً أو سبباً لوجودهم أنفسهم. ومرة أخرى خدعهم الموت، وتبينوا بكل حزن أننا رأينا كل شىء، وأن ثمة أصوات لا يمكنها السكوت.

ومن ذا الذى يتحدث عن قوة الأحداث، وعما إذا كانوا هم نحن أو نحن هم، فهل ولدوا منا أم نحن الذين ولدنا منهم؟ هل نحن الذين نجتذبهم، أم هم الذين يجذبوننا؟ هل نحن الذين نغيرهم، أم هم الذين سيغيروننا؟ ألا يخطئون أبداً؟ لماذا يأتون إلينا مثل النحلة فى الخلية والحمامة فى البرج؟ وأين كان سيلجأ أولئك الذين لن يجدوننا فى الموعد؟ ومن أين سيأتون لمقابلتنا؟ ولماذا يظهرون لنا باعتبارهم أخوة؟ ألا يتحركون فى الماضى أو المستقبل؟ وهل أقوى الناس من ماتوا أم الذين لم يموتوا حتى الآن؟ هل الأمس أو الغد هو الذى يشكلنا؟ من منا لم يقض معظم حياته فى ظل حدث لم يحدث بعد؟ لقد رأيت هذه المواقف الجادة، وهذا السعى الذى كان يبدو أن له هدفاً قريباً جداً، وهل هذا الإحساس المسبق بالبرودة الشديدة، وبهذه العين التى لا تغفل أبداً تتعلق بأولئك الذين ستكون لهم نهاية؟ وعلى من سينقض الموت من الخارج بلا هوادة، ومع ذلك كانوا يسرعون، مثل إخوانهم الذين يحملون الموت فى ذاتهم. كان لهم الوجه نفسه. وكانت الحياة تبدو لهم أيضاً أكثر جدية من أولئك الذين يتعين عليهم أن يحيوا. كانوا يتحركون بثقة وانتباه وصمت. ولم يكن لديهم وقت يضيعونه، فقد كان ينبغى أن يكونوا مستعدين فى الساعة نفسها مادام أنه لا يمكن لنبى أن يتنبأ دون أن يعرفوا فى أى حياة ستكون حياتهم.

إن موتنا هو الذى يوجه حياتنا وليس لحياتنا أى هدف إلا موتنا، وموتنا هو البوتقة التى تجرى فيها حياتنا، التى كونت وجهنا. ولا يجب أن نرسم سوى صور الموتى، لأنهم هم وحدهم يشكلون نواتهم، وينكشفون على حقيقتهم للحظة وما تلك الحياة التى لا تضىء فى الشفافية، وفى ضوء بارد وبسيط يسقط على وسادة الساعات الأخيرة؟ هل هذا الضوء هو نفسه الذى يغطى وجوه الأطفال عندما يبتسمون لنا خصيصاً

ويفرضون علينا صمتًا يماثل صمت الحجرة، التى لا يتحدث فيها أحد الأشخاص أبدًا، وعندما أتذكر هؤلاء الذين عرفتهم، والذين كان الموت يصطحبهم فى يده، أرى مجموعة من الأطفال والمراهقين والمراهقات الذين يبدو كأنهم خارجون من المنزل نفسه. إنهم بالفعل أخوة وأخوات، وربُما يقال إنهم يتعرفون على أنفسهم بعلامات لا نراها نحن، وأنهم يصنعون فى اللحظة التى لم نعد نُريهم فيها، إشارة الصمت. إنهم هم الأطفال الذين ينتظرون الموت قبل الأوان، وكنا نميزهم بغموض فى المدرسة، وكانوا يبدون كأنهم يبحثون عن بعضهم ويهربون – فى الوقت نفسه – من أنفسهم مثل أولئك الذين لديهم العجز نفسه. كنا نراهم عن بعد تحت أشجار الحديقة، وكانت لديهم الجدية المختفية نفسها تحت ابتسامة متقطعة أكثر مادية من ابتسامتنا. ولا أعرف ما هو المظهر الذى يخشى فيه المرء من إفشاء سر. وبصفة دائمة تقريبًا، كانوا يصمتون عندما كان أولئك الذين يتعين عليهم أن يعيشوا ويقتربوا من جمعهم. هل كانوا يتحدثون بالفعل عن الحادث أو هل كانوا يعلمون أن الحادث يتحدث من خلالهم ورغمًا عنهم؟ وهل كانوا يحيطون به بهذا الشكل كى يخفوه عن الأعين غير المكترثة، كانوا يبدون – لبعض الوقت – كأنهم ينظرون إلينا من أعلى برج، وعلى الرغم أنهم كانوا أضعف منا، فإننا لم نكن تجرؤ على أن نزعجهم. ومن الحقيقى أن شيئًا لا يخفى وأنكم جميعًا يا من تقابلوننى تعلمون ماذا فعلت وماذا سأفعل، وأنتم تعرفون فيما أفكر، وفيما فكرت. وتعلمون بالضبط اليوم الذى يتعين أن أموت فيه، لكنكم لا تجدون الوسيلة التى تقولون بها ذلك حتى لو بصوت منخفض أو حتى فى قلوبكم. وقد تعودنا أن نصمت عن كل ما لا تطاله أيدينا، ولو عرفنا كل ما نعلمه لتبينت أمور كثيرة لنا. وإذا كنا نعيش بجانب حياتنا الحقيقية، فإننا نشعر أن أدق أسرارنا وأعمقها لا تعنينا لأننا لسنا شيئًا آخر غير أفكارنا وأحلامنا، ولا نعيش بأنفسنا إلا لبعض الوقت ولمجرد التسلية. متى سيأتى اليوم الذى سنصير فيه على ما نحن عليه. وانتظارًا لقدوم ذلك اليوم، فإننا نقف أمام تلك الأمور كما لو كنا غرباء عنها، ذلك لأنها ترعب حياتنا. وأحيانًا تصاحبنا هذه الأمور فى الممرات والساحات ونشعر بصعوبة فى متابعتها. وقد تختلط مع ألعابنا، إلا أنه لا يبدو أن اللعبة هى نفسها. ولم يكن البعض يجدون إخوانهم،

فكانوا يسيرون وحدهم وسط صيحاتنا، ولم يكن لهم أصدقاء بين أولئك الذين لن يموتوا. ومع ذلك فنحن كنا نحبهم ولم يكن لدينا وجه أكثر صداقة منهم. فماذا كان يوجد بيننا وبينهم، وماذا كان يوجد بيننا جميعًا؟ فى عمق أى بحر من الأسرار نعيش نحن؟ إن هذا الحب يسود هنا، لكن لا يعبّر عنه لأنه لا يسهم فى الحياة فى هذا العالم، وربما لا يمكنه أن يحتمل أى محنة، إذ يبدو أنه مكشوف فى كل لحظة، كما أنه يبدو أن أقل صداقة عادية يمكن أن تهزمه، ومع ذلك فإن حياته أكثر عمقًا من أنفسنا، وربما يبدو لنا كأنه غير مكترث بنا، لأنه عرف كيف يحتفظ بنفسه لعصور طويلة أكثر أمنًا.

وهو لا يتحدث هنا لأنه يعرف أنه سيتكلم فيما بعد، ولا يمكن أبدًا اعتبار من تقبلّهم بمثابة من نحبهم بعمق. وهكذا يوجد جزء من الحياة – وهو أفضلها وأنقاها وأعظمها – لا ينخرط فى الحياة المعتادة، ولا تستطيع أعين المحبين أنفسهم أن تخترق – على الإطلاق – هذا الجسر من الصمت والحب.

وبمعنى آخر، هل نتركهم وحدهم لأنهم كانوا أكبر منا رغم أنهم أكثر شبابًا؟... هل كنا نعلم أنه ليس لديهم العمر نفسه، وهل كنا نخشى أن يكونوا بمثابة قضاة لنا؟ هل كانت نظراتهم بالفعل أقل حركة من نظراتنا، وإذا كانوا يعتمدون بمحض الصدفة على تحركاتنا فإنها كانت تبدو بلا منطق، ويسود لبرهة صمت غير مفهوم. إننا نعود أدراجنا، وهم ينظرون إلينا ويضحكون بشدة. إننى أتذكر وجه اثنين من بينهما كان الموت ينتظرهما بقوة. ومع ذلك فقد كان الجميع يشعرون أمامهما بالخجل، ويحاولون ألا يراهم أحد. كان لديهم شىء لا أعرفه من الحياء المميت، وكانوا يبدون كأنهم يطلبون العفو عن خطيئة قادمة غير معروفة. كانوا يتقدمون، وتبادلنا نظرة ثم افترقنا دون أن نقول شيئًا كأننا نفهم كل شىء دون أن نعرف شيئًا.

الفصل الرابع

"علم الأخلاق الصوفى"

من الثابت جداً أن الأفكار التى لدينا تعطى شكلاً تعسفياً للحركات غير المرئية للملكات الداخلية، وهناك ألف تأكيد وتأكيد بأن الملكات الخفية هى التى تقودنا خلال وجودنا ولا تستطيع أن نتحدث عنها ؛ لأننا حينما نعبر عن شىء ما، نقلل من شأنه بغرابة، ونعتقد أننا تغلغلنا حتى أعماق الهوات حتى نصعد مرة أخرى إلى السطح، وإن قطرة الماء التى تلمع عند نهاية أصابعنا الشاحبة لا تكون مثل ماء البحر الذى خرجت منه، ونعتقد أننا اكتشفنا نقطة فى الكنوز العجيبة، لكن عندما نعود إلى ضوء النهار، نكتشف أننا لم نحمل إلا أحجاراً مزيفة وقطعة من الزجاج، ومع ذلك، فإن الكنز يظل يلمع فى الظلمات دون أن يتغير، ويوجد شىء ما يحجبنا عن نفسنا وعن روحنا، وفى بعض اللحظات، كما يقول "إيمرسون Emerson" إننا نصل فى كل ذلك إلى أن نرغب بشدة فى المعاناة، أو معاناة العذاب بأمل أن نجد الحقيقة فى النهاية، ونحس بالأطراف الحادة وبزوايا الحقيقة.

ومن جهة أخرى، فقد قلت إن الأرواح تبدو كأنها تتقارب فيما بينها، ولا نجد قيمة إلا القيمة التى يمكن أن يكتسبها انطباع دائم، وإن كان غامضاً، ومن الصعب أن نعتمد على وقائع ؛ لأن الوقائع ليست سوى أنواع من المشردين، والجواسيس أو الذين يقودون قوى كبرى لا نراها؛ ومع ذلك فقد يقال، بشكل أكثر عمقًا مما قاله أباؤنا، إننا نشعر فى بعض اللحظات أننا لا نجد أنفسنا إلا عندما نكون وحدنا، وهؤلاء الذين لا يعتقدون فى أى إله، لا يتصرفون كغيرهم إلا فى نواتهم، كما لو كانوا متأكدين أنهم

سيكونون وحدهم. وهناك مراقبة عامة تجرى بعيداً وفى الظلمات البسيطة لضمير كل إنسان، فهل من الصحيح أن الأوعية الدموية الروحية ليست مغلقة تمامًا كما كان الحال فى الماضى، وتموجات البحر الداخلية أصبحت أكثر قوة؟ لا أعلم، فكل ما يمكن أن نلاحظه هو أننا لا نعطى الأهمية نفسها لعدد ما من الأخطاء التقليدية، وهذا بالفعل علامة على الغزو الفكرى.

ويبدو أن أخلاقنا تتغير وتتقدم بخطًا بطيئة نحو مناطق أكثر ارتفاعًا، بحيث لا نراها حتى الآن، ربما يكون هذا هو السبب فى أن اللحظة قد حانت لنسأل أنفسنا أسئلة جديدة. وعلى سبيل المثال، ماذا يمكن أن يحدث لو صارت ذاتنا مرئية بصفة فجائية ؛ بحيث يتعين عليها أن تتقدم وسط مثيلتها من المجتمعات دون أى حواجز، رغم أنها ستكون محملة بأفكارها التى تجذب معها أكثر أعمال حياتها غموضًا، والتى لا يمكن لأحد أن يعبر عنها؟ ومن أى شىء تخجل تلك النفس؟ ماذا تريد أن تخفى؟ هل سيصل بها الأمر إلى أن تصبح مثل المرأة الخجول، التى تلقى على شعرها خطايا جسد لا حصر لها؟ إنها تجهل هذه الخطايا، كما أن تلك الخطايا لم تصل إليها قط؛ لأنها ارتُكبت على مسافة بعيدة عنها، وربما تمر روح "سودنيت **Sodonite**" وسط الناس دون أن تشك فى أى شىء، وهى تحمل فى عينها ابتسامة صاخبة كابتسامة الطفل، وهى لا تتدخل فى شىء وتسير فى حياتها نحو الأضواء، ولن تتذكر إلا هذه الحياة وحدها.

ما هذه الخطايا والجرائم المعتادة، التى ربما استطاعت أن ترتكبها؟ هل خانت أو خدعت أحداً أو كذبت؟ هل سببت معاناة لأحد أو جعلته يبكى؟ أين كانت فى الوقت الذى كان شخص ما يسلم أخاها إلى الأعداء؟ ربما كانت تنتحب بعيداً عن شقيقها، ومن تلك اللحظة، أصبحت أكثر جمالاً وعمقًا. ولم تخجل مما لم تفعله، حيث يمكنها أن تظل صافية وسط مذبحة كبيرة. وفى كثير من الأحيان، تحول كل الآلام التى يتعين عليها أن تشاهدها إلى أنوار داخلية، وكل شىء يعتمد على مبدأ خفى ينشأ عنه – بالتأكيد – تسامح الآلهة، وهو أمر لا يمكن شرحه، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تسامحنا؛ لأننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من التسامح، وعندما يمر الموت، الذى يحدث "التصالح الكبير"،

فمن منا لا يجثو على ركبتيه ويقوم بحركة التسامح للروح التى ماتت؟ وإذا كنت سأنحنى على جسد عدوى اللدود، فهل تعتقدون عندئذ أننى وأنا أنظر إلى شفتيه الشاحبتين اللتين اغتابتانى، وإلى عينيه المغلقتين اللتين جعلتا عيناى تبكى من قبل، وإلى هاتين اليدين الباردتين اللتين عذبتانى، أننى أفكر عندئذ فى الانتقام. لقد دفع الموت عندما جاء ثمن كل شىء، ولم تعد الروح عندئذ مدينة لى بشىء، وبصفة غريزية، تسمو النفس فوق أصعب الأخطاء وأكثرها خطورة. وكم تعتبر تلك الغريزة عجيبة ومحملة بالمعانى! وإذا كنت آسف على شىء فليس لعدم قدرتى على إثارة المعاناة، لكن على عدم إحساسى بالحب بشكل كاف أو على عدم تسامحى من قبل.

وقد يقال إننا لا نفهم هذه الأمور فى قرارة أنفسنا، ونحن لا نصدر أحكامًا على إخواننا بناءً على أعمالهم أو حتى أفكارهم ؛ لأن الأفكار الخفية ليست دائمًا غير مقروءة، ونحن نسير إلى ما وراء الشىء غير المقروء، ويمكن للمرء أن يكون قد ارتكب كل الجرائم المشهورة وأحطها دون أن تقلل أكبر جريمة ارتكبها للحظة من روح الانتعاش والصفاء المعنوى الذى يحيط بوجود هذا المرء، وذلك بدلاً من أن يكون الاقتراب من شهيد أو من حكيم غطاءً يثقل نفسنا بظلمات كثيفة غير محتملة. ويختار البطل أو القديس صديقة من بين وجوه يرى فيها دون عناء كل ما هو معتاد من الأفكار الخسيسة، ولن يشعر بشىء فى هذا الجو الأخوى أو الإنسانى، وهو موجود بجوار شخص آخر تمتلئ جبهته بأسمى الألحان وأعظمها. ماذا يعنى ذلك، وما الجديد الذى سينشأ عن تلك الأمور؟ هل توجد إذن قوانين أكثر عمقًا من تلك التى تحكم الأفعال والأفكار؟ وماذا تعلمنا من غيرنا؟ ولماذا نتصرف دائمًا طبقًا لقواعد لا يتحدث عنها أحد، وإن كانت تعتبر وحدها هى الأكيدة؟ ذلك لأنه لا يمكن أن نؤكد – رغم كل المظاهر– أن البطل أو القديس لم يخطئا ولم يفعلا شيئًا سوى الطاعة، وإذا كان القديس قد خُدع وباعه إنسان كان قد اختاره بنفسه، فإن شيئًا ما لا يتزعزع يبقى مع كل ذلك يذكره بأنه ليس هناك خطأ، وأنه ليس ثمة شىء يؤسف عليه. ذلك لأن النفس لا تنسى أبدًا أن النفس الأخرى كانت واضحة.

وبينما نحرك الحجر، المجهول تقريبًا، الذى يغطى هذه الأسرار، يتنفس المرء رائحة الهاوية القوية جداً، وفى الوقت نفسه يتنفس رائحة الكلمات والأفكار، التى تسقط حولنا مثل ذباب مسموم.

وتبدو الحياة الداخلية نفسها كما لو كانت شيئًا صغيراً بجوار هذه الأعماق غير المتغيرة. هل ستكون فخوراً فى وجود أحد الملائكة، وهل ستكون ذلك الشخص الذى لم يخطئ قط، وألا توجد براءة دنيئة؟ عندما قرأ المسيح الأفكار البائسة للفارسيين "Pharisiens" الذين أحاطوا بالرجل المشلول فى "كفرناحوم Capharnaüm"، فهل كنت متأكداً أنه كان يصدر حكمه أيضًا على نفسهم بمجرد نظرة مماثلة، ويدينها، دون أن يلاحظ من خلال هذه الأفكار علاقة مضيئة غير قابلة للإفساد؟ وهل كان المسيح سيكون إلهًا لو أن حكمه بالإدانة كان نهائيًا؟ لكن لماذا يتحدث كما لو كان يتوقف فى الخارج؟ وهل يمكن لأحط الأفكار أو لأنبلها أن تترك أثرًا على قطب ماسة؟ من هو الإله – إن كان حقًا فى الأعالى – الذى يكون بوسعه أن يمنع نفسه من أن يبتسم أمام أفظع أخطائنا، تماماً مثلما نبتسم نحن بسبب الألعاب الصغيرة، التى يقوم بها الطلاب على السجاد؟ وماذا يمكن أن يكن شأن هذا الإله الذى لا يبتسم؟ ولو أصبحت شفافًا حقيقة، فهل تعتقد أن بوسعك الهروب من نظرات الملائكة، أو أن تخفى أعمالك الكبرى عنهم؟ ومع ذلك ألا يوجد فينا أكثر من شىء يمكن أن يصير خطأً فى نظر الآلهة الجالسة على الجبل؟ من المؤكد وجود بعضهم هناك، كما أنه من المؤكد أن نفسنا لا تجهل أنها ستخضع للحساب. إن هذه النفس تعيش – دون أن تقول شيئًا – تحت قبضة قاض عظيم لا نستطيع إدراك أحكامه، لكن ما هذه الحسابات؟ وأين نجد علم الأخلاق الذى يتحدث عن ذلك؟ هل يوجد علم أخلاق غامض يسود فى بقاع بعيدة أكبر من تلك التى توجد فيها أفكارنا، أو فى نجم مركزى لا نراه، تعتبر فيه أكثر رغباتنا سرية مجرد كواكب لا حول لها؟ هل توجد فى قلب وجودنا شجرة شفافة لا تعتبر فيها كل أعمالنا وكل فضائلنا إلا بمثابة زهور وأوراق سرعان ما تزول؟ وفى الواقع نجهل ما هو الشر الذى يمكن أن ترتكبه ذاتنا، ولا نعلم أيضاً من أى شىء نخجل أمام هذا الفكر العلوى أو أمام ذات أخرى ؛ ومع ذلك فمن منا يجد نفسه نقيًا ولا يخشى أى قاض؟ وما تلك النفس التى لا تخشى نفساً أخرى؟

إننا هنا لم نعد نوجد فى الوديان المعروفة للحياة الحيوانية أو النفسية. إننا نصل إلى أبواب السور الثالث، وهو سور الحياة الربانية للمتصوفين، ولا نستطيع عبور عتبته إلا ونحن نتحسسها. ثم بعد أن نعبر العتبة نتساءل: أين الحقائق المؤكدة؟ أين تختفى تلك القوانين الرائعة التى نخلّ بها دائمًا فى غفلة من ضميرنا، على الرغم من أنّ نفسنا على علم بها؟

من أين يأتى إذن شبح هذه الإخلالات الغامضة، التى تخيم أحيانًا على حياتنا وتجعل المعيشة فيها - فجأة - شديدة الرعب؟ ما الخطايا الروحية التى يمكننا أن نرتكبها؟ هل سنخجل من أننا كنا نناطح نفسنا، ومن أن نفسنا كانت تحارب الله دون أن يراها أحد؟ وهل تلك الحرب كانت صامتة إلى حد لا يمكن معه لأى زفرة أن تهز جنباتها؟ هل توجد لحظة يمكن أن نسمع فيها الملكة ذات الشفاه المغلقة؟ إنها تصمت دون أمل فى أى أحداث على السطح، لكن ألا توجد غيرها من الملكات، لا نكاد نلاحظها، وتتصل مع ذلك بقوى خالدة وعميقة. ها هو شخص يموت وينظر أو يبكى، وها هو آخر يقترب لأول مرة منه أو ها هو عدوك الذى يمرّ ؛ أليست النفس حينذاك تهمس إلى نفسها؟ ولو استمعت إليها، فإنك ستبتسم فى تلك اللحظة لصديق قررت من قبل ألاّ تحبه فى المستقبل، لكن كل ذلك لا يعتبر شيئًا مذكوراً، بل لا يقترب حتى من الأنوار الخارجية للهوّة. وليس فى الإمكان الحديث عن هذه الأمور؛ لأن المرء يجد نفسه فى وحدة موحشة. ويقول "نوڤاليس Novalis" فى الوقت الحالى لا تتحرك النفس إلا هنا أو هناك؛ فمتى ستتحرك بالكامل، ومتى تستعيد الإنسانية وعيها؟. فقط بهذا الشرط وحده يمكن أن يعرف البعض شيئًا ما، ويجب أن ننظر بصبر تكوّن هذا الضمير الأعلى شيئًا فشيئًا، وقد يصل عندئذ أحد القادمين فى المستقبل إلى التعبير عما نشعر به جميعًا فى هذا الجانب من النفس، الذى يماثل وجه القمر الآخر، الذى لم نره منذ بداية العالم.

الفصل الخامس

"عن النساء"

فى هذه المجالات أيضًا تكون القوانين غير معروفة وفى وسط السماء يلمع فوق رءوسنا نجم الحب المخصص لنا، وستنشأ كل أنواع حبّنا وتستمر حتى نهايتها فى أشعة وجوّ هذا النجم، وسيكون من حقنا أن نختار اليمين أو اليسار فى المرتفعات أو المنخفضات، ويمكننا، كى نخرج من هذه الدائرة الجميلة التى نحس بها فى كل أعمال حياتنا، أن نخترق غريزتنا ونحاول أن نختار ما يتعارض مع اختيار نجمنا وننتقى دائمًا المرأة التى تنزل من نجم ثابت لا يتغير. وإذا كنا - مثل "دون جوان Don Juan" نقبل ألف امرأة وثلاث، فعندما يأتى المساء حيث تتراخى الأذرعة وتفترق الشفاه، نكتشف أن المرأة هى نفسها المرأة، طيبة كانت أو سيئة، حنونة كانت أم شرسة، المُحبّة أو الخائنة.. هى المرأة نفسها الماثلة أمامنا.

وفى الحقيقة، فإننا لا نخرج أبدًا من دائرة الوضوح الصغيرة التى ترسمها أقدارنا حول خطواتنا، وربما يقال إن أبعد الناس يعرفون دقة وسعة هذه الحلقة التى لا يمكن تجاوزها، وتلك هى سمات هذه الاشعاعات الروحية التى يلاحظها الناس فى البداية، والتى تجعلهم يمدون يدهم باسمين أو يسحبونها خائفين، ونحن نعرف أنفسنا جميعًا فى الجو العلوى، والفكرة التى تعتمل فى نفسى عن شخص مجهول تتعلق على الفور بحقيقة غامضة أكثر عمقًا من الحقيقة المادية. ومن منا لا يعانى من هذه الأمور التى تحدث فى مناطق لا يمكن للإنسانية أن تخترقها لأنها مناطق النجوم؟ وهل عندما تتسلم خطابًا قادمًا من جزيرة نائية فى قلب المحيط كتبتها يد لا تعرفها، تكون متأكدًا

من أن شخصًا مجهولاً هو الذى يكتب لك، وألا تشعر فى اللحظة التى تقرؤها فيها، وتتصور الكائن الذى تتقابل معه عبرها، بأن الآلهة وحدها هى التى تعرف أمورًا مؤكدة لا خطأ فيها وأكثر أهمية بكثير من كل ما هو موثوق فيه عادة؟ ومن جهة أخرى، ألا تعتقد أن هذه النفس التى فكرت فيك بالمصادفة فى الزمان والمكان كانت لديها أشياء مؤكدة متماثلة؟

ويوجد فى كل مكان أمور غريبة نتعرف عليها ولا نستطيع أن نخفى عنها وجودنا، ولا يبدو أن شيئًا سيبقى على هذه العلاقات الدقيقة التى يتعين أن توجد، يومًا ما، بين جميع الأنفس وتكون أكثر خصوصية من تلك الأمور الصغيرة الغامضة، التى تصاحب تبادل بعض الرسائل بين اثنين لا يعرفان بعضهما. وقد يكون ذلك بمثابة ثقب ضيق بسيط، لكن به ما يمكن أن يجعلنا نكتفى ببعض الأضواء الخافتة التى تخرج منه. وربما يكون أحد هذه الثقوب الضيقة موجودًا فى باب الظلمات، حيث يمكننا عندئذ أن نتبين للحظة ما يجرى فى مغارة كنوز لم يعثر عليها أحد قط. تفحّص المراسلات الكثيرة لشخص ما، وستجد فيها شيئًا فريدًا لا أعرفه. وأنا لا أعرف هذا أو ذاك من الناس الذين يوجهون أسئلة إلى بعضهم بعضًا فى الصباح، وما أعرفه هو أنى لا أستطيع أن أجيب الأول عن سؤاله بالكيفية نفسها التى أرد بها على الثانى، ذلك لأنى أحس شيئًا لا أراه، ولو كتب لى شخص لم أره قط فإننى سأكون على يقين من أن رسالته لى لا تماثل رسالة أخرى يكتبها لصديق موجود ينظر إلىّ فى هذه اللحظة. وسيوجد دائمًا اختلاف روحى لا يمكن إدراكه، ويتمثل فى وجود علاقة بين روح، وروح أخرى تحييها خفية، ويجب أن نعتقد أننا نعرف أنفسنا فى أماكن لا نعرفها، وأن لنا وطنًا نذهب إليه ونجد روحنا فيه، ونعود منه دون تعب.

وفى هذا الوطن المشترك أيضًا، نختار عشيقاتنا، وهذا هو السبب فى أننا نرتكب نحن وعشيقاتنا أخطاء، وتعد مملكة الحب هى المملكة الكبرى للأمور المؤكدة، قبل أى شىء آخر، لأن الأرواح تستمتع فيها أكثر، لأنه ليس أمامها – حقيقة – شىء آخر تفعله إلاّ أن تتعرف على بعضها بعضًا، وتعجب ببعضها بعضًا بكل عمق، وتتبادل الأسئلة

فيما بينها والدموع فى عيونها تماماً مثل أخوات شابات تتلاقين وتتشابك أذرعهن، وتتلاقى شفاهن بعيداً جداً عنهن، وقد يكون لديهن الوقت للابتسام وليعشن لحظة لأنفسهن فى هدأة الحياة اليومية القاسية، وقد ينتشر من هذه الابتسامات والنظرات التى لا نستطيع وصفها، ملمح لا نعرفه يحفظ إلى الأبد ذكرى تقابل ثغرين فى أبرد دقائق الحب.

لكنى لا أتحدث هنا إلا عن الحب المقدّر سلفاً وعن الحب الحقيقى، وعندما نعثر على عاطفة حب من تلك التى خططها لنا القدر، وأخرجها من عمق المدن الروحية الكبرى التى نعيش فيها دون أن ندرى، كى يرسلها إلى مفترق الطريق الذى ينبغى أن يمر فيه فى الساعة الموعودة، نكون على علم بهذه العاطفة منذ النظرة الأولى. وعندئذ يحاول البعض اختراق القدر، إذ يحدث أن نضع بعنف أيدينا على جفوننا كى لا نرى ما يتعين أن نراه. وإذا حاولنا بقوانا الصغيرة أن نقاوم القوى الخالدة، فسنتمكن من عبور الطريق إلى عاطفة حب أخرى ليست موجودة لحسابنا، إلا أننا سنبذل جهدنا دون أن ننجح فى "تحريك الماء الراكد فى براميل المستقبل". ولن يحدث أى شىء؛ لأن قوة الأعالى الصافية والشفافة لا ترغب فى النزول، كما أن هذه القبلات، والساعات غير المفيدة، سترفض الانضمام إلى الساعات والقبلات الحقيقية فى حياتنا.

وفى بعض الأحيان يغمض القدر عيونه، لكنه يعلم أننا سنعود إليه فى المساء لأن كلمته هى الأخيرة، وإذا كان بإمكان القدر إغلاق عينيه ففترة إغماضهما تحسب فى الوقت الضائع.

ويبدو أن المرأة أكثر خضوعاً للأقدار منا، لأنها تتعرض لها ببساطة أكبر. وبكل إخلاص لا تقف أبداً ضد هذا القدر. ومن جانب آخر فهى أكثر قرباً من الله، ومع قليل من التحفظ تترك نفسها لما يفعله الغموض المجرد، ولهذا فإنه من المؤكد أن كل الأحداث التى نمرّ بها فى حياتنا تجرى وتسوقنا إلى شىء ما يتشابه مع مصادر القدر، ونشعر فى بعض اللحظات، ونحن قريبون من القدر على وجه الخصوص، "بحدس واضح" لحياة لا يبدو أنها تماثل دائماً حياتنا الظاهرة، ذلك لأن القدر يقربنا من أعتاب وجودنا.

ومن يدرى أنه فى اللحظة التى ينام فيها الأبطال على صدر القدر للحظة ما، يتعلمون قوة تجمهم وإخلاصه لهم. والإنسان الذى لا يستريح على قلب امرأة هل سيكون عنده شعور حقيقى بالمستقبل؟

وندخل مرة أخرى في الدوائر المضطربة لضميرنا العلوى. آه!! من الصحيح هنا أيضًا ما يسمى بعلم النفس وهو واحد من تلك الأشباح التى اغتصبت، فى المحراب، المكان المخصص للصور الحقيقية للآلهة؛ لأن الأمر لا يتعلق دائمًا بالسطح، بل ولا بأشد الأفكار السيئة. وإذن فهل تعتقدون أنه لا يوجد فى الحب إلا أفكار وأعمال وكلمات، وأن النفوس لا تخرج عن ذلك؟ وهل أنا فى حاجة لأن أعلم ما إذا كانت تلك التى أقبّلها اليوم تشعر بالغيرة أو أنها ضاحكة أو حزينة، أو وفيّة أم خائنة! هل تتصور أن مثل تلك الكلمات ستصعد إلى الأعالى، حيث توجد أرواحنا وحيث تجرى أقدارنا فى صمت؟

لا يهمنى ما إذا كانت المرأة تتحدث عن المطر، أو عن الجواهر أو عن الأقلام والإبر، أو حتى ما إذا كانت تبدو غير فاهمة لى. هل تعتقد أننى أتعطش إلى كلمة عليا فى الوقت الذى أحس فيه أن نفسًا تنظر إلىَّ من خلال النفس، أو أننى لا أعلم أن خير الأفكار ليس لها الحق فى أن تطاول الغيبيات؟ إننى دائمًا على شاطئ المحيط. ولو كنت مثل: أفلاطون، أو بسكال، أو مايكل أنجلو، ولو كلمتنى حبيبتى عن أقراط أذنيها، فإن كل ما يمكن أن أقوله أو تقوله لى هى، سيطفو بالكيفية نفسها على أعماق البحر الداخلى الذى يتأمله كل منا فى الآخر، ولن يكون لأعظم فكر فى موازين الحياة والحب أى تأثير إلا بمقدار ما تؤثر الكلمات الثلاث الصغيرة، التى تقولها لى طفلة تحبنى عن خواتمها الفضيّة، وعن عقدها اللؤلؤى أو عن قطع زجاج خاصة بها.

إننا نحن الذين لا نفهم لأننا نكون دائمًا فى قاع ذكائنا، ويكفى أن نصعد إلى أول طبقات الجليد فى الجبل، كى نجد فى الأفق الفسيح أمامنا كل التضاريس. ما الفرق عندئذ بين كلمة يقولها "مارك أوريل **Marc-Aurèle**"، وبين ما تقوله طفلة تلاحظ برودة الجو؟ لنكن بسطاء ولنعرف كيف نفرق بين الحدث العارض وبين الجوهر.

ولا ينبغي أن تنسينا "العصا الطافية" غرائب الهاوية، ولا تخفف أجمل الأفكار أو أكثرها سوءًا من المشهد الأبدى لروحنا تمامًا، مثلما لا تؤثر جبال الهملايا أو الحُفر في منظر أرضنا وسط نجوم السماء. لقد قيل كل شيء عن النظرة والقُبلة، وعن الثقة بوجود قوى غير مرئي، وأنا أعلم أننى أوجد إلى جانب شيء متعادل.

ولكن الشيء المتعادل جدير، حقيقة، بالإعجاب والاستغراب، وعندما تشعر آخر الفتيات بالحب فإنها تمتلك شيئًا ما لا نمتلكه أبدًا، لأن الحب في تفكيرها خالد دائمًا. فهل لهذا السبب تمتلك جميع البنات، بما لديهن من قوى فطرية، علاقات محرمة علينا؟ إن أفضل واحد فينا يوجد دائمًا، وبالتقريب، على مسافات بعيدة من كنوزهن وعندما تتطلب لحظة مهمة من الحياة إحدى جواهر هذا الكنز، فإن الرجال لا يتذكرون الدروب التي تؤدى إليه، ويقدمون - بلا جدوى - جواهر مزيفة من صنع تفكيرهم تتفق مع هذا الظرف المُلحّ الذى لا ينخدع فيه أحد، لكن المرأة لا تنسى الطريق الموصّل إلى مركز الكنز وربما أفاجأ بها في نعيم أو في شقاء، أو جهل أو علم، في عار أو مجد، ولو قلت لها كلمة تخرج حقيقة من أعماق نفسي البتول، فإنها ستعرف أن تجد، مرة أخرى، الدروب الغامضة التي لم تغب عن ناظريها قط، وستحضر لى بكل بساطة وبدون تردد من أعماق خزائن الحب التي لا تنفد، كلمة أو نظرة أو حركة صافية مثل حركتى. وربما يقال إن روح المرأة دائمًا في متناول يدها ؛ وأنها مستعدة ليلاً أو نهارًا للرد على أعلى ما تتطلبه نفس أخرى، لأن دية أفقر النساء لا تتميز عن دية الملكات.

فلنقترب بكل احترام من أكثر النساء تواضعًا وأكثرهن تكبرًا، من الطائشات والمفكرات، ومن الضاحكات والباكيات لأنهن يعرفن أمورًا لا نعرفها ولديهن مصباح فقدناه نحن. وهن يقمن عند سفح ما لا يمكن تحاشيه، ويعرفن الطرقات أفضل منا. ولذلك فإن لديهن أمورًا مؤكدة مدهشة، وجاذبيات جديرة بالإعجاب. ويرى المرء جيدًا أنهن يشعرن في أبسط أعمالهن بأن أيدى الآلهة الكبيرة تقويهن وتشد من أزرهن. وقد كنت أؤكد الآن أنهن يقربننا من أبواب وجودنا. وقد نعتقد، حقيقة، أن علاقاتنا معهن تجرى عن طريق مواربة هذا الباب الفطرى وبواسطة الوشوشات غير المفهومة

التى تصاحب بلا شك منشأ الأشياء، رغم أن الكلام لا يحدث إلا بصوت خافت، خشية ألا نسمع أمراً بمنع الكلام أو أن يحدث أمر غير متوقع.

ولا تجاوز المرأة عتبة هذا الباب، وتنتظرنا فى الداخل حيث توجد الينابيع. وعندما نأتى لندق الباب من الخارج تفتح دون أن ترفع يدها عن المفتاح أو المصراع. وتنظر لحظة إلى هذا القادم الذى يقترب، وتكون فى تلك اللحظة القصيرة قد عرفت كل ما يمكن معرفته، لأن السنوات القادمة ستكون غير مستقرة حتى آخر الأزمان.

ومن ذا الذى سيقول لنا ما تحويه أول نظرة حب "والتى تعتبر بمثابة عصًا صغيرة سحرية صُنعت من شعاع ضوء منكسر"، وهو شعاع خرج من المركز الخالد لوجودنا والذى غيّر نفسين، وأصغر سنهما عشرين قرنًا؟ ويفتح الباب ويغلق ولا داعى لبذل أى جهد بعد الآن، لأن كل شىء قد تقرر. وتعلم المرأة أنها لن تقيم وزنًا بعد الآن لا لأعمالك، ولا لكلماتك، ولا لأفكارك، وإذا كانت النساء لا يزالن يراقبن ذلك حتى الآن. فإن المرأة لا تقوم بهذه المراقبة، إلا وهى مبتسمة؛ وسترفض - دون أن تدرى - كل ما لا يعمل على تأكيد النظرة الأولى. ولو اعتقدت أنك يمكن أن تدخلها فى مكان الخطأ، فاعلم جيداً أن لها الحق ضدك، وأنت وحدك الذى تخطئ؛ لأنك لا تكون فى أعينها إلا ما تظنه أن يكون فى قرارة نفسك، هذا فى الوقت الذى تخطئ هى فيه باستمرار بشأن معنى الابتسامة أو الحركة أو الدمعة.

إنها كنوز خفية، ليس لها مسمى!... وأود أن يتحدث عنها كل أولئك الذى يعتبرون النساء سيئات ويجاهرون بذلك ولديهم أسبابهم، وإذا كانت هذه الأسباب عميقة ؛ فإننا سنشعر بالدهشة وسنسير قدمًا إلى المجهول. إن النساء يعتبرن حقيقةً أخوة غير مرئيين لكل الأمور العظيمة التى لا نراها.

هن فى حقيقة الأمر أقرب ما يكن إلى اللانهائية التى تحيط بنا، ويعتبرن وحدهن القادرات على أن يبتسمن للانهائية بالجمال العائلى نفسه لطفل لا يخشى أباه، وهنا يحتفظن بملمح نقى لنفسك، كما يحتفظن بجوهرة سماوية لا جدوى منها. وإذا ذهبت النساء، فإن العقل وحده سيسيطر لكن على صحراء. ولا تزال توجد عند النساء الانفعالات

الإلهية للأيام الأولى التى تنغمس جذورها مباشرة فى كل ما ليس له حدود على الإطلاق، وأنا أرثى حقيقة لهؤلاء الذين يشكون منهن؛ لأنهم لا يعلمون فى أى مناطق علوية توجد القبلات الحقيقية. ومع ذلك فإنهن يبدون شيئًا قليلاً حينما ينظر إليهم الرجال بشكل عابر؟ إنهم يرونهن وهن يتحركن فى داخل منازلهن الصغيرة؛ حيث تنحنى امرأة قليلاً هنا، وتنتحب أخرى، وتغنى الثالثة، والأخيرة تقوم بالتطريز؛ ولا يوجد أحد يفهم ما يفعلن!. ويأتى الرجال لزيارتهن كما يزور المرء أشياء تبتسم؛ ولا يقتربون منهن إلا بحذر، كما لا يمكن للروح أن تدخل إلا بصدفة عظيمة، والرجال يتساءلون بحذر؛ ولا يقولون لهن شيئًا؛ لأنهن يعرفن ما قالوه من قبل، ويذهب الرجال وهم يهزون أكتافهم مقتنعين بأن النساء لا يفهمن. "ويجيبنا الشاعر – وله الحق دائمًا – قائلاً: أى شىء تحتاج النساء لفهمه؟ وهل هن فى حاجة ليفهمن هذه الأرواح السعيدة التى اختارت أفضل الجوانب، والتى تتمتع بأنقى نيران الحب فى هذا العالم الأرضى، ولا تزدهر إلا على قمة المعابد أو أعالى السفن بوصفها دلالة على النار السماوية التى تفيض على كل شىء؟ وفى كثير من الأحيان، يقوم الأطفال الذين يحبون بمفاجأتنا فى الساعات المقدسة بأسرار عجيبة للطبيعة، ويكشفون عنها بعبقرية تخرج عن نطاق الوعى، ويسير العالم على أثرهم ليجمع كل الجواهر التى نثروها عبر الطرقات فى ظل براءتهم ومرحهم. أما الشاعر، الذى يشعر ما تشعر به النساء، فإنه يمجد حبهن ويعمل – عن طريق أغانيه – على نشر هذا الحب، الذى يعتبر بذرة العصر الذهبى فى أزمنة وأمكنة أخرى." لأن ما قاله هذا الشاعر عن الصوفيين ينطبق – بصفة خاصة – على النساء اللاتى حفظن لنا – حتى الآن – المعنى الصوفى على الأرض.

الفصل السادس

"روسبروك العجيب Ruysbroeck l'Admirable"[(١)]

يعتبر عدد كبير من المؤلفات الأخرى أكثر جمالاً من هذا الكتاب، الذى ألّفه "روسبروك العجيب"، وهناك أيضًا عدد كبير من الصوفية أكثر توافقًا وفاعلية منه، مثل "سويندنبرج Swendenborg"، و"نوڤاليس Novalis".

ولا تتفق موضوعات كتاباته فى أغلب الأحيان مع الاحتياجات الحالية، ومن ناحية أخرى، فإننى أعرف قلة من المؤلفين أقل مهارة منه، وهو يتوه لحظات فى أمور غريبة وصغيرة، خاصة وأن أول عشرين فصلاً من كتابه: "زينة العرائس الروحية L'Ornement de Noces Spirituelles" لا تحتوى إلاّ على موضوعات فاترة تتعلق بالورع الدينى العام، وإن كانت تعد بمثابة تمهيدات قد تكون ضرورية، ومن حيث الشكل الخارجى العام لا نجد لهذا الكتاب أى نظام أو منطق منهجى، ويكرر المؤلف نفسه فى أحيان كثيرة، ويبدو أحيانًا متناقضًا مع نفسه.

وهو يجمع ما بين جهل يتصف به طفل، وعلم رجل قد يكون بعث من الموت. وللكتاب تركيبة كزازية اختلاجية جعلتنى أتصبب عرقًا أكثر من مرة، فهو يقوم بإدخال صورة ثم ينساها، بل إنه يستخدم عدداً من الصور غير قابلة للتحقيق. ومثل هذا المظهر غير الطبيعى، فى عمل حسنت نيته، لا يمكن تفسيره إلا بعدم المهارة أو بالتسرع غير المعتاد.

---

(١) فان روسبروك الملقب بالعجيب، وهو رجل دين وكاتب ولد فى مدينة رويسبرك سنة ١٢٩٣ ومات سنة ١٣٨١. وتعتبر كتاباته الصوفية من بين أوائل المؤلفات الكبيرة المكتوبة باللغة الهولندية. (المترجم).

وهو يجـهل معظم ألاعيب الكلمة، ولا يمكن أن يتحدث إلا عن ما يعجز عنه الوصف. وهو لا يعرف تقريباً كل العادات والمهارات ومصادر الفكر الفلسفي ويحصر نفسه فيما لا يمكن التفكير فيه، وعندما يحدثنا عن صديقته الصغيرة فى دير الرهبنة، فإنه يصعب عليه أن يقول لنا، بما فيه الكفاية، ماذا يجرى داخلها، ويكتب حينئذ كما لو كان طفلاً. وهو يعـمل على أن يعلمنا فى هذا الكتـاب مـاذا يحـدث بـالنسـبـة له. ويكتب فـى هذا الخصوص صفحات قد لا يستطيع أفلاطون أن يكتبها، ويوجد بين الصفحات خلل كبير بين العلم والجهل، وبين القوة والرغبـة، ولا يمكن أن نتـوقع منه تقويم أىّ عمل أدبى، ولا يمكن للمرء أن يرى فيه شيئًا آخر سوى مايراه عندما يطير صقر مخمور فى السماء وهو أعمى يقطر منه الدم فوق قمم جليدية.

وسأضيف كلمة أخيرة تحذيراً أخـوياً، فقـد حدث أن قرأت أعمـالاً تصعب كثيراً على الفـهم مـثل كـتـاب "المريدون فى سـاييس Les Disciples à Saïs" ومـقـتطفـات "لنوڤاليس Novalis"، وعلى سبيل المثال أيضًا السيرات الأدبية، وكتاب الصديق للكاتب "صموئيل تايلور كوليردج"، وكتاب تيميه Timée لأفلاطون، وكتاب "إنياد لبلوتان Plotin"، وكتاب "الأسماء المقدسة Les Noms divins" و"لسان دنييس الأريوباچيت Saint Denis l'Aréopagite"، وكذلك كتاب الأورورا Aurora للكاتب الصوفى الألمانى الكبير "جاكوب بوم J. Poehme"، الذى يتشابه معه مؤلفنا فى أكثر من موضع؛ ومع ذلك لا أجرؤ على أن أقول إن أعمال "روسبروك" أكثر صعوبة من هذه الأعمال، وقد نتغاضى عن هذه الصعوبة بجزء من إرادتنا، لأن الأمر يتعلق هنا أو هناك بكاتب لا نعرفه ليس لدينا ثقة فيه منذ البداية، وكان يبدو لى أنه من الضرورى أن نخطر، بكل تجرد، أولئك الذين يتسكعون على عتبة معبد بلا معمار، خاصة وأن الترجمة الخاصة بكتاب "روسبروك العجيب" لم تتم إلا لإرضاء بعض مُحبى أفلاطون، وأنا على يقين من أن الذين لم يعيشوا فى خاصية أفلاطون أو مع الأفلاطونيين الجدد فى الإسكندرية لن يسيروا قدمًا فى هذه القراءة، وسيظنون أنهم يذهبون إلى فراغ، وسيتولد لديهم إحساس بالسقوط الشامل فى حفرة ليس لها قرار بين صخور سوداء ناعمة، ولا يوجد فى هذا الكتاب هواء أو نور معتاد لأنه ليس سوى مقّر معنوى لا يحتمل من جانب الذين لم يهيئـوا أنفسهم لهذا المقـر.

ولا ينبغى الدخول فى هذا المقّر من باب حب الاستطلاع الأدبى، إذ لا توجد فيه كثير من التحف الصغيرة، ولن يجد فيه محبو النباتات المصورة أى أزهار إلا على كتل الجليد الطافية فى القطب، وإننى أقول لهم إنها صحراء قاحلة لا حدود لها سيموتون فيها من العطش، وسيجد هؤلاء القراء فى الكتاب قليلاً جداً من الجُمل، التى يمكنهم تداركها للإعجاب بها على طريقة رجال الأدب، وإن كانت ليست إلا نافورات للعب أو كتلاً من الثلج، إذ لا ينبغى للمرء أن يذهب للبحث عن الورود فى أيسلندا، وقد يحدث أن نجد بين قطعتين من الجليد أشباه زهرة. وفى الواقع قد نجد فى الكتاب تعبيرات انفجارية فريدة، وتركيبات لغوية غير معروفة وتشبيهات لم يسمع بها أحد، وهى - هكذا - لا تساوى قيمة الوقت الذى ضاع فى الحضور من بعيد للحصول عليها، وينبغى قبل الدخول فى تفاصيل أن يكون المرء فى حالة فلسفية مختلفة عن الأحوال العادية، التى تختلف بدورها فى حالة اليقظة عن حالة النوم، ويبدو أن "بورفير **Porphyre**" فى كتابه "مبادئ نظرية الفهم" قد كتب مقدمة تتناسب تمامًا مع بداياته، حيث إنه يكثر - بذكاء - من الحديث «عن كثير من الأمور التى تتعلق بمبدأ دائم يصعب على الفهم، ويتجلى فيه الحدس عن طريق غياب الفكر أكثر من الفكر نفسه. وهذا الأخير يماثل فكرة النعاس الذى يتم الحديث عنه، وفكرة حالة اليقظة، دون التوصل إلى معرفة أو إدراك إلا عن طريق النوم. وفى واقع الأمر لا يُعرف النظير إلا بالنظير، والشرط فى أى معرفة هو أن يصير الفاعل مماثلاً للمفعول». وأكرر القول بأنه من الصعب أن نفهم هذا الكلام دون استعداد لأن نفهمه لأنه رغم دراساتنا المبدئية، فإن جزءًا كبيرًا من التصوّف سيبدو لنا نظريًا مجردًا، ولن تصل إلينا معظم التجارب النفسية غير الطبيعية إلا بوصفنا مجرد متفرجين، ويعد الخيال الفلسفى موهبة تربوية شديدة البطء، إذ نجد أنفسنا فجأة ونحن فى جوانب الفكر الإنسانى، بعيدين عن الحلقة القطبية لهذا الفكر حيث البرودة غير المعتادة، وحيث الظلمة غير العادية، وإن كنا فى الحقيقة لا نرى شيئًا آخر غير اللهب والضوء.

وبالنسبة للذين يحاولون الوصول إلى هذه المدركات دون أن يكونوا مستعدين لها، فإن هذا الضوء وهذا اللهب سيعتبران مظلمين وباردين كما لو كانا مرسومين.

ويتعلق الأمر هنا بأضبط العلوم، حيث ينبغى المرور بأعقد الدروب التى لا تسكنها القداسة، وتتمثل فى هذه العبارة "اعرف نفسك بنفسك"، وتسيطر "شمس منتصف الليل" على البحر الهائج، حيث تختلط سيكلوچية الإنسان بسيكلوچية الله، ومن الضرورى أن نتذكر ذلك باستمرار لأننا هنا بصدد علم عميق جداً، وليس مجرد حلم، لأن الأحلام لا تتوافق مع بعضها وليس لها جذور، بينما الزهرة المتوهجة لعلم ما وراء الطبيعة، المقدسة والمتفتحة لها جذور غيبية فى فارس والهند ومصر واليونان. ومع ذلك، فإن هذه الميتافيزيقا مُغيبّة الوعى تماماً كالزهرة التى تجهل جذورها. وللأسف فإنه من المستحيل علينا تقريبًا أن نضع نفسنا موضع تلك النفس التى تصورت هذا العلم دون جهد، والتى لا يمكن رؤيتها أو وجودها فى أعماقنا. وينقصنا ما يسميه "إيمرسون Emerson" "التلقائية المركزية"، ولم يعد فى وسعنا أن نحول هذه الأفكار إلى المادة الخاصة بنا. وعلى أكثر تقدير، يكون بوسعنا أن نقبل من الخارج تلك التجارب المعجزة التى لا يستطيع الوصول إليها إلا عدد قليل جداً من الناس طوال بقاء النظام الكوكبى للكون. ويقول بلوتان Plotin: «ليس من الشرعية أن نبحث عن مصدر هذا العلم الحدسى، كما لو كان له صلة بالمكان والحركة، فذلك لا يقربنا بأى حال من أماكن أخرى، وقد يكون هذا باديًا أو غير ظاهر لكن لا ينبغى تعقب هذا الموضوع بقصد اكتشاف مصادره السرية. لكن يجب أن ننتظر فى صمت إلى أن يُطّل هذا الأمر علينا، على أن نعّد أنفسنا لهذا المشهد المقدس، تماماً كما تنتظر العين - بكل صبر - شروق الشمس».

وفى مكان آخر، يضيف بلوتان Plotin قائلاً: «ليس بالخيال ولا بالعقل يضطر المرء إلى أن يستخلص بنفسه مبادئه من الخارج كما يسوّل لنا فهمنا ذلك، وإنما يتحقق ذلك بالموهبة التى نمتلكها كى نتأمل هذه المبادئ، تلك الموهبة التى تسمح لنا بأن نتحدث عنها فى هذه الدنيا. ونحن نرى هذه المبادئ عندما نوقظ فى ذاتنا وفى الحياة الدينية القدرة نفسها، التى يتعين علينا إيقاظها فى أنفسنا عندما نوجد فى عالم الفهم. ونحن نشبه إنسانًا يحفر فى أعلى صخرة، وينظر إلى أشياء لا يمكن أن يراها أولئك الذين لم يصعدوا معه للصخرة». لكن على الرغم من أن جميع المخلوقات بدءًا من الحجر والنبات حتى الإنسان تعتبر موضوعات للتأمل، فإن هذه التأملات تعتبر تأملات غير واعية،

لأنه من الصعوبة بمكان أن نجد فى أنفسنا ذكرى لنشاط سابق لموهبة ميتة. ونحن نشبه هنا العين فى الصورة الأفلاطونية الجديدة، التى تذكر «أن المرء يبتعد عن النور ليرى الظلمات، وبذلك لا يرى شيئًا لأنه ليس من المستطاع رؤية الظلمات مع النور، لأنه دون النور لا يرى المرء شيئًا، وبهذه الطريقة يرى الظلمات بقدر مقدرته الطبيعية على أن يراها وهو لا يراها».

وأنا أعرف حكم معظم الناس على هذا الكتاب فهم يرون فيه عملاً لراهب مهووس، أو لشخص انعزالى شارد أو ناسك ثمل من الصيام مصابًا بالحمّى، وسيرى الناس فى هذا الكتاب حلمًا أحمق وأسود تجتازه ومضات كبيرة ولا شىء غير ذلك. إنها الفكرة العادية التى يكونها الناس عن المتصوفين، وينسون فى أغلب الأحيان أن كل يقين يتمثل فيهم وحدهم. وفضلاً عن ذلك، فإن قيل إن كل بشر يكون فى أحلامه "شكسبير"، فيجب أن نسأل أنفسنا عما إذا كان كل كائن، فى حياته، لا يعتبر متصوفًا لا شكل له رغم أنه أكثر شفافية بكثير من أولئك الذين أحاطوا أنفسهم بالكلمة، وأين هو عمل الإنسان الذى لا يكون الدافع الأخير إليه ليس صوفيًا؟

وعلى سبيل المثال، ألا تكون عين العاشق أو عين الأم أكثر صعوبة فى الفهم مائة مرة وأكثر غموضًا وأكثر صوفية من هذا الكتاب الهزيل، الذى يسهل تفسيره مثل كل الكتب التى لا تحتوى إلا على غيبيات ميتة لا يتجدد لها أفق؟ وإذا لم نكن فاهمين لذلك، فقد لا نفهم شيئًا بعد ذلك. وإذا عدنا إلى مؤلفنا، فإن البعض سيتعرفون دون عناء، ودون أن يصيبهم جنون الجوع والوحدة والحمى، على هذا الراهب الذى كان يمتلك، على العكس، أحكم وأدق وأضبط أعضاء فلسفية فى الوجود. ويقال لنا إنه كان يعيش فى خيمة فى منطقة جروننداېل **Groenendael** وسط غابة سوانى **Soignes**، وكان ذلك فى مستهل أحد القرون البدائية فى العصور الوسطى وهو القرن الرابع عشر. كان "روسبروك" يجهل اليونانية وربما اللاتينية أيضًا، وكان وحيدًا فقيرًا. وفى قلب هذه الغابة المتوحشة كانت نفسه البسيطة الجاهلة تستقبل – دون أن تعلم – الانعكاسات الصادرة من القمم المنفردة والغامضة للفكر الإنسانى، والتى تصيب المرء بالعمى عن كل شىء.

إنه يعرف – دون أن يعلم – أفلاطونية اليونان، وصوفية فارس، وبراهمية الهند، وبوذية التبت، وعثر جهله العجيب على حكمة القرون الغابرة، وتنبأ بعلم قرون لم تكن قد جاءت بعد. ويمكنني أن أستشهد بصفحات كاملة لأفلاطون، وبلوتان، و "بورفير **Porphyre**"، وصفحات أخرى من كتب "زندس **Zends**"، و "جنوستيك"، و "كبال **Kabhale**" وردت مادتها الدينية التي لم يمسسها أحد، كتابات القس الفلاماندى البسيط، حيث توجد تصادمات وتكاملات غريبة تثير القلق، بل إن هناك ما هو أكثر من ذلك، إذ يبنو فى بعض الأحيان أنه قد افترض وجود كثير من المغمورين السابقين؛ ومثلما بدأ "بلوتان **Plotin**" رحلته الرائدة من حيث توقف أفلاطون منزعجًا وجاثيًا على ركبتيه، يمكننا أن نقول إن "روسبروك" قد أيقظ وبعث هذا النوع من الكلام، الذى كان قد انتابه السبات فوق الجبال التى هجرها "بلوتان" منبهرًا عندما وضع يده على عينيه كما لو كان أمام حريق هائل، خاصة وأن هذه النوعية من الكلام كانت قد خمدت قرونًا عديدة بحيث لا يمكن إعادتها من جديد.

لكن تركيبة فكر أفلاطون، و "بلوتان" تختلف بشكل غريب، لأنهما – قبل كل شىء – أميرا علم الكلام، إذ إنهما يصلان إلى الصوفية بالمجادلة، وهما يستخدمان ذاتهما المحبة للجدال ويحذران حدسها وتأملاتها، وتتأمل الحجة العقلية نفسها فى مرآة الفكر المنطقى وتجاهد لتظل غير مكترثة بأى تداخلات من جميع الانعكاسات الأخرى. وتواصل الحجة العقلية مسيرتها مثل نهر من الماء العذب وسط بحر، مع إحساس باقتراب حدوث تشرب الأرض لهذا الماء. وهنا نعثر – على العكس – على عادات الفكر الآسيوى، وتظل الروح الحدسية وحدها فوق الشفافية الاستدلالية للأفكار باستخدام الكلمات، وهكذا سقطت قيود الحلم، فهل هذا السقوط أقل توكيداً؟ لا يمكن لأحد أن يقول ذلك، لأن مرآة الذكاء الإنسانى غير معروفة بالكامل فى هذا الكتاب، لكن توجد مرآة أخرى أقل صفاء وأكثر عمقًا نكتشفها فى أعماق وجودنا، ولا نستطيع أن نرى فيها أية تفصيلات بوضوح، ولا يمكن للكلمات أن تطفوا على سطحها، لأن الذكاء قد يكسرها إذا انعكس فيها للحظة واحدة ضوء دنيوى ؛ لكن شيئًا آخر يظهر فيها لبعض الوقت: فهل هى النفس؟ هل هو الله بذاته؟ أو الاثنين معًا؟ لا يمكننا أن نعرف ذلك أبداً. ومثل هذا الظهور الذى لا نراه تقريبيًا هو وحده الذى يسيطر على حياة الملحد

أو الأعمى بيننا، ولن نلاحظ شيئًا آخر هنا إلا انعكاسات غامضة لهذه المرآة، وبما أن كنزها لا ينفد، فإن هذه الانعكاسات لا تشبه تلك التى نشعر بها فى أعماقنا، ومع ذلك فإن تأكيد هذه الانعكاسات يبدو غير عادى. ولذلك فأنا لا أعرف إزعاجًا أكثر مما يسببه هذا الكتاب الذى يُفترض أنه مكتوب بحسن نية، ولا يوجد فى العالم مفهوم نفسى أو تجربة ميتافيزيقية، أو حدس صوفى شديد الدلالة والتعمق غير منتظر، لا يقلل من استطاعتنا أن نجعله يعيش للحظة فى نفسنا حتى يؤكد لنا الشخصية الإنسانية لكل ذلك؛ لكننا هنا نشبه أبًا أعمى لا يمكن أن يتذكر وجوه أطفاله، ولا يمكن لأىّ من هذه الأفكار أن يتخذ مظهر البنوة أو الأخوة لأى فكرة على الأرض.

ويبدو أننا فقدنا تجربة الله، ومع ذلك فإن كل شىء يؤكد أننا لم ندخل إلى بيت الأحلام. هل يجب أن نصيح مع "نوڤاليس Novalis" أن الزمن الذى تكون فيه روح الله مفهومة لم يأت بعد وأن معنى العالم قد ضاع إلى الأبد؟

هل كانت الروح تظهر فى الماضى، وإننا الآن لا نلمح سوى انعكاسات ميتة لم نعد نفهمها، ونعيش فقط على ثمار الزمن الجميل؟

إننى أعتقد أنه يجب أن نعترف بكل بساطة بأن مفتاح هذا الكتاب لم يعد يوجد على المسارات المعتادة للفكر الإنسانى، لأن هذا المفتاح ليس مخصصًا للأبواب الأرضية، وأنه يجب العمل على استحقاق الحصول على هذا المفتاح بالبعد عن الأرض بقدر الإمكان. ولن نقابل فى هذه المنعطفات المنعزلة سوى مرشد واحد يمكنه إعطاءنا الدلالات الأخيرة عن هذه الجزر النارية الغامضة، أو عن هذه الجزر الجليدية للتجرد والحب. و "بلوتان" هو الذى بذل جهدًا فى تحليل القدرة الإلهية، التى تسود هنا باستخدام العقل الإنسانى، وقد شعر "بلوتان" بجوانب النشوة نفسها التى ليست فى الحقيقة إلا بداية للاكتشاف الكامل لكينونتنا، وذلك باستخدام ما نسميه "الكلمة التى لا تقول شيئًا". ووسط اضطرابات نواحى النشوة تلك وما تحمله من ظلمات، لم يغلق "بلوتان" للحظة عينه المتسائلة بوصفه عالم نفسى يبحث عن الإحاطة بأغرب مظاهر نفسه، وبهذا يصبح آخر حاجز نستطيع من خلاله أن نفهم إلى حدّ ما أمواج وأفق هذا البحر الغامض.

وهو يحاول أن يتوغل ويطيل دروب الفكر العادى حتى تصل إلى قلب نواحى التخريب، ولهذا يجب أن نرجع إلى "بلوتان" باستمرار، لأنه الصوفى التحليلى الوحيد. وأريد أن أقدم هنا واحدة من الصفحات، التى حاول فيها شرح تركيبة القدرة الإلهية فى التأمل الباطنى، إلى هؤلاء الذين تسحرهم هذه الرحلات العلمية العجيبة.

وهو يقول: «فى الحدس الفكرى، يرى العقل الأشياء غير المفهومة بواسطة الضوء الذى ينشره الحدس الفكرى على هذه الأشياء، وعند رؤية الأشياء يرى العقل حقيقة نور الفكر. لكن، نظراً لأنه يركز انتباهه على الأشياء المضيئة الواضحة، فإن الفكر لا يدرك جيداً الأساس الذى به يتم توضيح هذه الأشياء وإضاءتها. أما إذا نسى العقل الأشياء التى يراها كى يتأمل فقط الضوء الذى يجعلها مرئية، فإنه يرى النور نفسه ويفهم أصله ومصدره، لكن بما أن العقل يركز انتباهه على الأشياء المضيئة، فإن الفهم الإنسانى لا يرى بوضوح المصدر الذى يضىء هذه الأشياء، وعلى العكس، لو نسى العقل الأشياء التى يراها، كى لا يتأمل إلا الضوء الذى يجعلها مرئية، فإنه يرى الضوء نفسه، ويرى مصدره، لكن العقل حين يتأمل الضوء الذى يفهمه، لا يحدث ذلك خارج نطاقه. وعندئذ يكون مشابهاً للعين التى يسقط عليها فجأة نور خاص بها، دون أى اعتبار لأى ضوء خارجى غريب عنها، بل وحتى قبل أن تحس به العين، بل يمكنها أن تتعرض إلى شعاع ينبع منها، يبدو لها وسط الظلمات ؛ ويحدث ذلك بالكيفية نفسها عندما تغلق العين جفنها وتستقى النور من ذاتها، أو عندما تضغط اليد على العين التى تلمح آنذاك النور الموجود داخلها. أما الأشياء الأخرى التى كانت تراها العين من قبل، فلم تكن النور نفسه رغم أنها مضيئة، والشىء نفسه يحدث عندما ينغلق العقل أمام الأشياء الأخرى ويركز كل شىء فى ذاته بحيث لا يرى شيئًا، وعندئذ يرى نوره هو فجأة، وإشعاعه الداخلى ذا الضوء الشفاف، وليس الضوء الخارجى الذى يلمع بأشكال غريبة».

ويقول "بلوتان" أيضًا: «يتعين على النفس التى تدرس الله أن تكون لنفسها فكرة عنه وهى تبحث عن معرفته، ويجب عليها بعد ذلك أن تتوغل فى أعماق الألوهية، وهى تعلم إلى أى شىء كبير تريد أن تتحد، وتحس بمدى السعادة فى هذا الاتحاد،

وحتى تصبح النفس وحدها موضوعًا للتأمل بدلاً من أن تتأمل نفسها أو تتأمل العالم الذى نفهمه، وعندئذ تلمع بضياء المفاهيم التى يأتى مصدرها من الأعالى».

وهذا بالتقريب كل ما يمكن أن تقوله لنا الحكمة الإنسانية فى هذا الصدد؛ وهذا تقريبًا أيضًا كل ما استطاع أمير الميتافيزيقيين الشفافين أن يعبر عنه؛ أما فيما يتعلق بالشروح الأخرى، فيجب أن نجدها فى أنفسنا وفى أعماقنا، حيث ينمحى كل تفسير فى التعبير عنه. وهناك أمور كثيرة لا توجد فقط فى السماء أو على الأرض، لكن فى أنفسنا أيضًا حيث توجد أشياء كثيرة لا يمكن أن تحتويها كل الفلسفات. وفى الوقت الذى لا نكون فيه مضطرين إلى صياغة كل ما هو خفىّ فينا، نكون أكثر عمقًا من كل ما كتب، وأكثر عظمة من كل ما هو موجود.

والآن، وإذا كنت ترجمت هذا الكتاب، فذلك يرجع فقط إلى أننى أعتقد أن كتابات الصوفيين تعتبر أنقى جواهر الألماس فى كنز الإنسانية، رغم أن أى ترجمة قد تكون غير مفيدة؛ لأن التجربة تبرهن – فيما يبدو – على أنه ليس من المهم كثيرًا أن يحدث سر تجسيد فكر ما فى النور أو فى الظلمات، لكن المهم أنه يحدث. ولكن، وعلى الرغم من كل شىء، فإن للحقائق الصوفية امتيازًا غريبًا على الحقائق العادية، لأنها لا يمكنها أن تتقادم أو تموت. ولا توجد حقيقة نزلت ذات صباح على هذا العالم تثير الإعجاب من جراء قوتها وفتوّتها أو تكون مغطاة بالندى الرطب الرائع، الخاص بما لم يتم قوله من أشياء. اذهب لتتجول فى غرف تمريض النفس البشرية فستجد عمرها ينتهى فى كل الأيام، ولن تجد فيها مطلقًا أى فكر صوفى، لأن لديها حصانة ملائكة "سويندنبرج Swendenborg" التى تتقدم باستمرار نحو ربيع شبابها، بحيث يظهر أطول ملائكتها عمرًا، كأنهم أكثر الملائكة شبابًا أو كأنهم قادمون من الهند أو اليونان أو من الشمال بلا وطن ولا ذكريات سنوية، وفى كل مكان نقابلهم فيه، تبدو هذه الملائكة ثابتة وعصرية مثل الله نفسه. ولا يمكن لأى عمل أن يتقادم إلا بقدر ما يكون نقيضًا للصوفية، ولهذا فإن هذا الكتاب لا يحمل أى تاريخ، إننى أعرف أنه أسود على غير العادة، لكننى أعتقد أن المؤلف المخلص حسن النية لا يكون دائمًا غامضًا بالمعنى الأبدى للكلمة، لأنه يفهم نفسه دائمًا وأبدًا ويتجاوز ما يقوله. والأفكار المصطنعة هى وحدها التى ترتفع لتصير ظلمات حقيقية،

ولا تزدهر إلا فى العصور الأدبية، وفى ظل سوء ظن القرون الواعية بشدة عندما يكون فكر الكاتب متجاوزاً لما يعبر عنه. وهناك نرى الظل الخصب لغاية ما، أما هنا فتوجد ظلمة قبو لا تزدهر فيه سوى طفيليات معتمة، ويجب أن نأخذ فى الاعتبار فى هذا العالم المجهول أن عباراته كان يجب أن تضىء عبر زوايا الكلمات والأفكار من خلال واجهات مزدوجة وبسيطة. وكما سبق أن لاحظنا، اخترعت الكلمات للاستخدامات العادية للحياة. وتكون هذه الكلمات تعسة وقلقة ومندهشة تشبه المشردين، الذين يتجمعون حول عرش انتظاراً لذات ملكية تدفعهم للخارج. ومن جهة أخرى، هل تكون الفكرة دائمًا صورة دقيقة لما تولدت عنه؟ ألا تبدو دائمًا صورة الصراع التى نراها فيها، متماثلة مع صراع يعقوب مع الملك؟ يقول "كارليل Carlyle": "الويل لنا إذا لم يكن فى ذاتنا ما يمكن أن نعبر عنه ونكشف عنه! إننى أعلم أنه يوجد فى هذه الصفحات شبح الأشياء التى لا نتذكر أننا رأيناها، والتى لا يحاول هذا الراهب (روسبروك العجيب) أن يوضح كيفية استخدامها، والتى لا نتعرف عليها إلا عندما سنرى الأشياء نفسها من الجانب الآخر للحياة؛ ولكن انتظاراً لذلك، سنضطر إلى أن ننظر إلى بعيد وهذا كثير. وإننى أعلم أيضًا أن كثيراً من الجمل تطفوا تقريباً مثل قطع الثلج الشفافة فوق بحر من الصمت لا لون له، لكن هذه الجُمل فُصلت عن المياه وهى موجودة. وهذا يكفى. وأنا أعلم أخيراً أن النباتات الغريبة التى زرعها على قمم الفكر تحيط بها سحب خاصة. لكن هذه السحب لا تسبب الإهانة إلا لهؤلاء الذين ينظرون إلى أسفل، ولو كانت لدى أحد الجرأة على الصعود، فسيلاحظ أن هذه السحب هى الجوّ نفسه الذى توجد فيه هذه النباتات، وأن هذا المناخ نفسه هو الذى يمكن فيه للنباتات أن تتفتح فى مأمن من الوجود. ذلك لأن الأمر يتعلق بنبات شديد الدقة إلى حد أنه يتميز بالكاد عن الصمت الذى استقى منه العصارة، وإلى حد أنه يبدو أنه يميل إلى إذابة نفسه. ومن جهة أخرى، فإن كل هذا العمل – الذى كتبه روسبروك – يعتبر بمثابة كوب منفوخ موضوع على الظلام والصمت؛ وأحيانًا لا نستطيع أن نتبين على الفور طرف الأفكار التى تنغمس فيه. إنه شىء لا نراه، وإن كان يشف عن نفسه للحظة ؛ ويجب بالطبع بعض الانتباه فى مواجهة تغيراته.

وهذا الكتاب ليس بعيداً جداً عنّا، بل إنه فى مركز اهتمام إنسانيتنا ؛ لكننا نحن الذين نبتعد عن هذا الكتاب كثيراً جداً، وإذا كان هذا الكتاب يبدو لنا مثبّطًا كالصحراء، وإذا كان الأسى فى الحب الإلهى فيه يبدو بشعًا، والتعطّش إلى القمم فيه غير محتمل، فإن الكتاب ليس هو القديم جداً، لكن نحن الذين ربما أصبحنا شيوخًا جداً، وحزانى بلا شجاعة مثل الطاعنين فى السّن المتجمعين حول طفل؛ وهناك متصوف آخر هو "بلوتان Plotin"، ذلك الصوفى الكبير الوثنى الذى ربما يعتبر محقاً بالنسبة إلينا عندما يقول لهؤلاء الذين يشكون من أنهم لا يرون شيئًا على مرتفعات التأملات الباطنية: «يتعين أولاً أن نجعل عضو الإبصار مماثلاً ومشابهًا للشىء الذى يتعين عليه أن يتأمله. ولم تكن العين قط قادرة على رؤية الشمس لو لم تكن قد اتخذت شكل الشمس، وكذلك لا تستطيع الروح أن ترى الجمال، إذا لم تصبح هى أولاً جميلة ويجب أن يبدأ كل إنسان بأن يجعل نفسه جميلاً وربّانياً، كى يحصل على رؤية الجمال والربّانية».

الفصل السابع

"إيمرسون Emerson"[1]

قال نوفاليس Novalis: «ثمة شيء واحد مهم، هو البحث عن ذاتنا الشفافة». ونحن نلاحظ هذه الذاتية أحيانًا في كلمات الله وفي كلام الشعراء والحكماء ووسط بعض المسرات وبعض الآلام، وفي أثناء النوم، وعند الحب والأمراض وظروف أخرى غير متوقعة، حيث تشير لنا هذه الذات من بعيد، وترينا بأصابعها علاقاتنا مع الكون.

ولم يتمسك بعض الحكماء إلا بالبحث في الذات وألفوا كتبًا لا يسود فيها إلا كل ما هو غريب. ويقول إيمرسون كاتبنا: «ماذا تساوي هذه الكتب إن لم تكن بها شفافية وغرابة»؟

كان هؤلاء المؤلفون مثل الرسامين الذين يحاولون فهم تشابه ما في الأمور بين الظلمات، ويخط البعض منهم صورًا مجردة كبيرة جدًا، لكنها غير واضحة. وتوصل البعض الآخر منهم إلى تحديد موقف أو حركة طبيعية في الحياة العليا، وتصور العديد منهم كائنات غريبة، وإن كان لا يوجد الكثير من هذه الصور، التي لا تتشابه مطلقًا وإن كان بعضها جميلاً جداً. والذين لم يروا هذه الصور يشبهون طيلة حياتهم أناسًا لم يخرجوا قط وسط النهار، وتوجد صور خطوطها أكثر نقاء من خطوط السماء، وعندئذ تبدو لنا هذه الصور شديدة البعد إلى الحد الذي لا نعرف فيه ما إذا كانت هذه

---

(١) رالف والدو إيمرسون، فيلسوف أمريكي ولد في بوسطن سنة ١٨٠٣ ومات عام ١٨٨٢، وهو يعتبر مؤسس مدرسة الشفافية الفلسفية، وقد ألف كتاباً بعنوان: ملامح من الطباع الإنجليزية سنة ١٨٥٦. (المترجم).

الصور موجودة بالفعل كما هى، أو ما إذا كانت قد تغيرت إلى الشكل الذى نريده لأنفسنا. وتعتبر هذه الصور من الأعمال الصوفية النقية التى لم ير الإنسان نفسه فيها بعد. وهناك آخرون ممن نطلق عليهم اسم الشعراء، يحدثوننا عن هذه الأمور بطريقة غير مباشرة. وهناك طائفة ثالثة من المفكرين، وهى التى تبالغ فى درجة أسطورة "قنطورس Centaure"(٢)، تعطينا عن هذه الشخصية الخفية صورة تختلط فيها خطوط الوصول إلى خط "الأنا" الخاص بنا، وتماثل هذه الخطوط تلك الموجودة فى ذاتنا العليا. وفى هذه الصورة، نرى وجه ذاتنا الربانية، الذى يبتسم فيها للحظات أعلى كتف أخته النفس الإنسانية، التى تميل إلى القيام بعمليات فكرية بسيطة، أما هذه الابتسامة التى تجعلنا نرى ما وراء الفكر رؤية عابرة، فتعتبر وحدها الشىء المهم فى أعمال البشر.

قليلون هم الذين أوضحوا لنا أن الإنسان أكثر عظمة، وأكثر عمقًا من الإنسان نفسه، وقد توصلوا إلى تحديد بعض من تلك الإشارات الخالدة التى نقابلها فى الحياة فى كل لحظة، والتى تتمثل فى شكل حركة أو علامة أو نظرة، أو كلمة فى لحظة صمت، أو فيما يحيط بنا من أحداث أيضًا. ويعتبر علم عظمة الإنسانية أغرب العلوم، ولا يجهله أى من الناس، لكن الجميع لا يعرفون تقريبًا ما إذا كانوا يمتلكون هذا العلم من عدمه. وليس لدى الطفل الذى يقابلنى القدرة على أن يقول لأمه ما رآه، ومع ذلك، فحين تلمحنى عينه، يعلم كل ما يتعلق بوجودى الآن، وفى الماضى والمستقبل أكثر مما يعلمه أخى نفسه، بل يعرف ثلاثة أضعاف ما أعرفه. وهو يعرفنى فى الحال سواء فى الماضى أو المستقبل، فى هذا العالم، والعوالم الأخرى. بل إن عينيه تظهران – لى أيضًا – الدور الذى ألعبه فى هذا العالم أو فى عالم الخلود. أما الأرواح المعصومة من الخطأ فقد حكمت على نفسها بنفسها، وحين تستقبل نظرة الطفل نظرتى وتشاهد شكلى ووجهى وكل ما يحيط بذلك من اللانهائية، وكل ما يمكن التنبؤ به، فإن هذا الطفل يعرف إلى أى شىء ينجذب على الرغم من أنه لا يعرف كيف يميز بين تاج الإمبراطور وخُرج الشحاذ. لقد عرفنى للحظة كما يعرفنى الله.

---

(٢) قنطورس: كائن خرافى نصفه إنسان ونصفه فرس. (المترجم).

ومن الحقيقى أننا نتصرف بالفعل مثل الآلهة، وتمضى حياتنا كلها وسط أمور مؤكدة لا يتطرق إليهـا الخطأ فى اللانهائيات، لكننا كنا عميانًا نلعب بأحجار كريمة على طول الطرقات ؛ والإنسان الذى يطرق بابى يستهلك - فى اللحظة التى يحيينى فيها - كنوزًا روحيه رائعة، تمامًا مثل الأمير الذى قد يكون بوسعى انتزاعه من الموت، وفى لحظة يرى - عندما أفتح له بابى - كل ما حدث بين روحين كأنه يراه من أعلى برج. وبالعمق نفسه أصدر حكمى على الفلاحة التى أسألها عن الطريق، أو أسألها عن حياة أمى. وروحها تحدثنى بخصوصية تماثل خصوصية خطيبتى. وبسرعة ترتقى هذه الفلاحة إلى غيبيات كبرى قبل أن تجيبنى وتقول لى بهدوء العالمة بما كنت فيه، إنه ينبغى أن أسلك طريق القرية إلى اليسار، ولو أمضيت ساعة وسط الناس دون أن أقول شيئًا، فإننى أكون قد حكمت عليهم ألف مرة - دون أن أفكر لحظة - فى تلك الأحكام على الأحياء والأموات، أو فى أىّ من هذه الأحكام سيتغير فى الآخرة.

وفى هذه الغرفة يوجد خمسة أو ستة أشخاص يتحدثون عن المطر والجو الجميل، لكن إذا تجاوزنا هذا الحديث البسيط، نجد أن هناك ستة أرواح لها حديث لا يمكن لأية حكمة إنسانية أن تقترب منه دون مجازفة، وعلى الرغم من أن هذه النفوس تتحدث عبر نظراتها وأيديها ووجوهها وكل وجودها، فإنها تجهل دائمًا ما قالته. ومع ذلك يجب على هذه الكائنات أن تنتظر نهاية هذا الحوار غير المفهوم، ومع ذلك يوجد لدى هذه الأرواح نوع ما من السرور المبهم فى وسط معاناتها، ودون أن تعرف ما يُنصت فى داخلها إلى كل قوانين الحياة والموت والحب، التى تحوم حول المنزل كأنهار لا ينضب ماؤها.

وتجرى هذه الأمور فى كل مكان بصفة مستمرة، ونحن لا نعيش إلا وفقًا لذاتنا الشفافة التى تخترق الأفعال والأفكار من خلال الغلاف، الذى يحيط بنا فى كل لحظة. وسأرى اليوم أحد الأصدقاء الذى لم يسبق أن شاهدته قط من قبل، وإن كنت أعرف أعماله وأعرف أن ذاته غير عادية وأنه أمضى حياته فى العمل على إظهار نفسه بكل دقة - بقدر الإمكان - طبقًا لجوانب ذكائه العليا. ودخل الصديق، لكن عند حركة

الباب الذى انفتح عندما جاء، تفتت كل التوضيحات التى سبق أن قدمها لنا خلال سنوات عديدة. ولم يكن هو ذلك الكائن الذى اعتقدت أنه يكونه، لأنه من طبيعة أخرى غير أفكاره. وهكذا نلاحظ مرة أخرى أن ما يبعث به الفكر إلينا غير دقيق، وقد ذكر الصديق عن نفسه أشياء شديدة العمق، لكن فى تلك اللحظة القصيرة التى تفصل بين النظرة الثاقبة والنظرة البعيدة، علمت كل ما لا يستطيع أبداً أن يقوله، وكل ما لا يمكنه أن يعيش فى فكره. وبلا عودة، ومن الآن فصاعداً أصبح هذا الصديق يخصّنى، أما قبل ذلك، فكان يجمعنا الفكر، ويوجد اليوم شىء أكثر غموضًا ألف ألف مرة من الفكر يجمعنا الواحد مع الآخر، وقد كنا ننتظر هذه اللحظة منذ سنوات، وقد صرنا نشعر أن كل شىء أصبح عديم الجدوى، لكننا لا نخشى الصمت لأننا نحن الذين هُيئنا كى نكشف لأنفسنا عن الكنوز الخفية العجيبة ؛ كنا نتحدث عن الساعة التى تدق أو عن الشمس التى تغيب حتى نعطى لنواتنا الوقت، لتعجب بنفسها وتنخرط فى صمت آخر يختلف عن تمتمة الشفاه، وعن الفكرة التى يمكنها تعكير هذا الصمت...

وفى العمق لا يمكننا الحياة إلا من نفس إلى نفس أخرى، وقد نكون آلهة لا تعرف ذاتها. وإذا كان من المستحيل لى، هذا المساء، أن أتحمل وحدتى، فإننى إذا نزلت وسط الناس سيقولون لى إن العاصفة قد أسقطت ثمار الكمثرى الخاصة بى، أو أن نوّات الجليد قد أغلقت الميناء، فهل نزلت إليهم من أجل ذلك؟ ومع ذلك سأنصرف ونفسى راضية ومملوءة بالقوة أيضًا وبالكنوز الجديدة، كما لو كنت أمضيت هذه الساعات مع أفلاطون أو سقراط أو مارك أوريل **Marc-Aurèle**، وما كان يقوله هؤلاء بأفواههم لم يكن يُسمع بجانب ما يعلن عنه حضورهم، ومن المستحيل على الإنسان ألا يكون عظيماً وجديراً بالإعجاب. وليس لما يعتقده الفكر أهمية بجانب حقيقة وجودنا الذى يتأكد فى صمت، وإذا كان "إبيكتت **Epictète**"(٣) وجوته والقديس بولس قد عاشوا فى أعماق

---

(٣) إبيكتت Epictète فيلسوف سوفسطائى من القرن الأول، ولد فى هيرابوليس، وقد اعتبرت "أحاديثه" Entretiens، وكتابه الموجز Le Manuel السوفسطائية مذهبًا أخلاقيًا يقوم على التفريق بين ما يعتمد على الفرد، وما لا يعتمد عليه.

وفى جزيرتى، فإنه لا يمكنهم، بعد خمسين سنة من الوحدة، أن يذكروا لى ما قد تقوله لى فى الوقت نفسه، وربما فوراً، الرغوة الصغيرة التى تصدر من سفينة يركبونها.

وفى الحقيقة نجد أن أكثر شىء غرابة فى الإنسان هو جاذبيته وحكمته المختفيتان. وأكثر الناس حباً للهزل لا يضحك - فى الواقع - بيننا أبداً. ورغم كل ما يبذله، فإنه لا يتوصل أبداً إلى أن يضيّع دقيقة؛ لأن النفس البشرية فى حالة ترقب دائم ولا تفعل شيئًا بلا جدوى، لأن حياتنا جادة، ولم تبتسم حتى الآن فى أعماق نفسنا. وفى الجانب الآخر لتحركاتنا غير الإرادية، نعيش حياة رائعة ساكنة وشفافة جداً وأكيدة جداً تشير إليها الأيدى الممدودة باستمرار، والعيون التى تنفتح والنظرات التى تتقابل.

وتتوافق كل حواسنا مع وجودنا العلوى بطريقة صوفية، حيث لا يوجد الإنسان لكن توجد الروح التى عرفناها. إننى لم أشاهد هذا الفقير الذى يتسول الإحسان على درجات سلّم باب دارى، لكنى لاحظت شيئًا آخر؛ ففى أعيننا نرى قدرين متماثلين يحييان بعضهما ويحبان بعضهما بعضًا. وفى اللحظة التى يمد فيها الفقير يده يتوارب باب المنزل المطل على البحر للحظة. ويقول "إيمرسون": «فى علاقاتى مع ابنى، لا تقدم لى اللغة اليونانية واللاتينية كل ما أعرفه، وكل ما أملكه من ذهب لا يقدم لى شيئًا ولا نفع له عندى لأن المهم هو ذاتى وحدها، وإذا كانت لى إرادة فإن ابنى يعارضنى بإرادته، أى إرادة ضد إرادة، ويترك لى - إذا أردت عارا - سوء استخدام قوتى عندما أضربه على وجهه، لكن لو صرفت النظر عن إرادتى وتصرفت باسم الروح ووضعتها حكمًا بيننا نحن الاثنين وسط عينيه الفتيتين، فإنه سينظر إلى الروح نفسها ويشعر بالاحترام والحب معى».

ولذا كان المؤكد أن آخر واحد منا لا يمكن أن يقوم بأقل حركة دون أن يضع اعتبارا للنفس ولممالكها الروحية التى تسيطر عليها، فإنه من الحقيقى أيضًا أن أكثر الحكماء لا يفكرون مطلقًا تقريبًا فى اللانهائية، التى تتجاوز مجرد جفن ينفتح أو رأسًا تنحنى أو يدًا تنغلق. إننا نعيش بعيدًا جدًا عن أنفسنا، ونجهل كل ما يحدث فى أفق وجودنا، وسنتجول بعشوائية فى الوادى دون أن نشك فى أن كل حركاتنا تتكرر وأنها تكتسب

معانيها فوق قمة الجبل. وفى بعض اللحظات يجب أن يأتى من يقول لنا: ارفعوا أعينكم وانظروا ماذا تفعلون! لأننا لا نعيش هنا بل فى الأعالى. انظروا إلى هذه النظرة التى تبدلت فى الظلام، وإلى هذه الكلمات التى لم يكن لها معنى عند سفح الجبل، كيف كانت! وماذا صارت تعنى خلف جليد هذه القمم! وانظروا كيف أصبحت أيادينا التى كنا نظنها ضعيفة وصغيرة، تصل إلى الله فى كل لحظة دون أن تدرى.

لقد جاء البعض ليربت على الكتف وهو يشير بالأصبع إلى ما يحدث فى مستودعات الغموض الباردة، وهذه المستودعات الباردة ليست كثيرة، ويوجد منها فى هذا القرن ثلاثة أو أربعة، وفى القرون الأخرى خمسة أو ستة. وكل ما استطاعت هذه المستودعات الثلجية أن تقوله لنا لا يعد ذا شأن بالنسبة لما حدث وبالنسبة لما لا تجهله روحنا. لكن هل ذلك لا يهم؟ ألسنا نشبه رجلاً فقد عينيه فى سنوات طفولته الأولى؟ لقد رأى المناظر المتعددة للكائنات؛ رأى الشمس والبحر والغابة. والآن أصبحت هذه العجائب موجودة فى مادة كيانه هو. وإذا تحدثت عن ذلك، فماذا يمكن أن تقول له، وما قيمة كلماتك البسيطة بجانب هذه اللانهائية وأمام العاصفة وأمام ابنلاج الصبح، وهى كلها أمور لا تزال تعيش فى أعماق فكره وجسده؟ ورغم ذلك سيصغى إليك بمرح شديد وعجيب مع معرفته بكل شىء، وإدراكه أن كلماتك تجسّد ما يعرفه هو بشكل غير كامل، فكوب الماء لا يمثل نهراً كبيراً، كما أن الجمل الصغيرة العاجزة التى تسقط من فم البشر تضىء المحيط للحظة، وتبعث النور إلى أوراق الشجر السوداء النائمة تحت جفون ميتة.

وتتعدد فى الغالب أوجه هذه "الذات الشفافة"، التى يتحدث عنها "نوڤاليس" والتى لم يستطع أى عالم أخلاق صوفى أن يدرسها بالكيفية نفسها. ويقوم "سويدنبرج Swedenborg"، و"بسكال ونوڤاليس، وهيللو" وآخرون بفحص علاقاتنا مع اللانهائية المجردة الدقيقة البعيدة عنا جداً، وقد ساروا بنا إلى جبال لا تبدو قممها طبيعية أو مسكونة ونتنفس فيها بصعوبة، ويصطحب "جوته" ذاتنا إلى شواطئ بحر الصفاء. أمّا "مارك أوريل" فإنه يُجلس هذه النفس بالقرب من التلال الإنسانية للطيبة الكاملة والمتعبة، تحت أغصان

أشجار كثيفة مثقلة بالاستسلام دون أمــل، وفى أقصى الجانب الآخـر من الوادى، يقوم "كارليل" الأخ الروحى لإيمرسون، بتحـذيرنا ويمرّر أمـامنا - مـثل الومـضـات السريعة - اللحظات البطولية لوجودنا، وحدها، مستنداً إلى خلفية مكوّنة من الظلال والعواصف التى تحدث باستمرار من شىء مجهول شرس، وهو يقودنا مثل قطيع ألقت به العواصف إلى مراع مجهولة كبريتية، ويدفعنا إلى أعماق الظلام الذى اكتشفه بسعادة لا ينيره إلا نجم حاد متقطع النور خاص بالأبطال، ثم يتركنا لعقوبات انتقامية غيبية كبيرة مع ضحكة ساخرة.

وفى الوقت نفسه نجد إيمرسون، ذلك الراعى الصالح لتلك الحقول الخضراء الشاحبة مع تفاؤل جديد طبيعى ومقبول، ولا يسير بنا إيمرسون إلى جانب الهاويات، ولا يخرجنا من المحيط العائلى المتواضع، لأن المناطق الباردة والبحر والجليد الدائم، والقصر والحظيرة، وموقد الفقير المنطفئ وسرير المريض، تقع كلها تحت سماء واحدة جعلتها القوى اللانهائية نفسها شفافة نقية.

وقد جاء "إيمرسون" - بالنسبة لكثيرين - فى الوقت الذى كان ينبغى أن يأتى فيه، وفى اللحظة التى كانوا فيها فى حاجة ماسة إلى توضيحات جديدة، ولا تظهر ساعات البطولة كثيراً، أما ساعات إنكار الذات فلم يحن أوانها بعد، ولم يعد تبقى لنا سوى الحياة المعتادة اليومية. ومع ذلك، فإننا لا نستطيع أن نعيش دون عظمة. لقد أعطى "إيمرسون" تقريبًا معنى لهذه الحياة التى لم تعد لها أبعادها التقليدية، وربما استطاع أن يرينا كم هى غريبة وعميقة إلى حد ما، وكبيرة بحيث لا يكون لها غاية إلا هى ذاتها، ولم يعرف منها "إيمرسون" أكثر مما يعرفه الآخرون؛ لكنه يؤكد ما يعلمه بشجاعة أكبر واثقًا فى ما هو غيب. ويجب عليكم أن تعيشوا يا من تقضون الأيام والسنين دون أعمال، وبدون أفكار، وبدون نور؛ لأن حياتكم - رغم كل شىء - غير مفهومة وربّانية. يجب أن نحيا؛ لأنه ليس من حق أحد أن ينسحب وينأى بنفسه عن الأحداث الروحية، التى تقع فى الأسابيع المعتادة، ويجب أن نعيش لأنه لا توجد ساعات تمضى دون معجزات خاصة وبدون أن تكون لها معــان لا يمكن وصفهــا، ويجب أن نحيا لأنه

لا يوجد عمل ولا كلمة أو حركة تفلت من ادعاءات لا يمكن شرحها فى عالم «توجد فيه أشياء كثيرة يجب القيام بها وأشياء قليلة يجب أن نعرفها».

ولا توجد حياة كبيرة أو حياة صغيرة، كما أن ما فعله "ريجولوس" "Regulus"[(٤)] أو "ليونيدس" "Léonidas"[(٥)] ليس له أهمية على الإطلاق حينما نقارن ما قاما به مع لحظة من الوجود السرى لروحى، وتستطيع نفسى أن تقوم بما فعلاه أو لا تقوم؛ لأن مثل هذه الأمور لا تؤثر فيها، كما أن نفس" ريجولوس" عندما عاد إلى قرطاجنة كانت شاردة ولا مبالية مثل نفس العامل، الذى يذهب إلى المصنع. والنفس بعيدة جداً عن كل أعمالنا، وبعيدة جداً عن كل أفكارنا، وتعيش النفس وحدها، فى أعماقنا، حياة لا تتحدث عنها؛ كما لا يمكننا – بعد الآن – أن نتبين تنوع أنواع الوجود فى تلك الأعالى التى تسيطر فيها النفس.

ونحن نمشى متعبين تحت ثقل نفسنا، وليس ثمة تناسب بيننا وبينها، وربما لا تفكر أبداً فيما نفعله، وإن كان مقروءاً على وجهنا. وإذا كان من المستطاع أن نسأل أية عقلية فى عالم آخر عن التعبير الاصطناعى لوجه البشر، فإنها سترد بلا شك، بعد أن سبق لها أن شاهدت البشر فى أفراحهم وأحزانهم وقلقهم، قائلة: «إنه يبدو أنهم يفكرون فى شىء آخر». كن عظيماً وحكيماً وبليغاً؛ ولن تكون نفس هذا الفقير الذى يمدّ يده فى ركن من الجسر شاعرة بالغيرة، لكن أنت نفسك قد تحسده على صمته.

ويحتاج البطل إلى رضا الإنسان العادى، لكن الإنسان العادى لا يطلب رضا البطل، ويستمر فى حياته – دون قلق – مثل أى شخص يحتفظ بكل كنوزه فى مكان أمين. ويقول إيمرسون: «عندما يتحدث "سقراط"، فإن "ليزيس Lysis"، "ومنكسين Ménéxène" لا يشعران بأى خجل من صمتهما، وهما أيضًا عظيمان، ويرجع إليهما سقراط

---

(٤) ماركوس ريجولوس: جنرال روحى مشهور، أشتهر بإنكار ذاته وإخلاصه لليمين الذى أداه، وقد مات من التعذيب فى مدينة قرطاجنة. (المترجم).

(٥) ليونيداس: ملك أسبرطة من سنة ٤٩٠ إلى سنة ٤٨٠ قبل الميلاد، ومات فى معركة مع الفرس (المترجم).

ويحبهما فى الوقت الذى يتحدث فيه؛ لأن كل إنسان يحوى فى داخله الحقيقة التى يتحدث بها إنسان بليغ، لكن - بسبب البلاغة التى ينطق بها الإنسان البليغ - تقل الحقيقة، ولذلك فإن سقراط يلتفت إلى هذين الصامتين العجيبين بكل اهتمام وبأجلّ احترام».

ويطمع الإنسان فى الإيضاحات، ويجب أن ندلّه على حياته. ويشعر المرء بالمتعة حين يجد - فى جهة ما - التفسير الصحيح لحركة صغيرة قام بها منذ خمسة وعشرين عامًا. وهنا لا توجد حركة صغيرة، لكن نجد معظم المواقف التى تتخذها نفسنا يوميًا، ولن تجد فيها الطابع الخالد لفكر "مارك أوريل"، لكن مارك أوريل هو الفكر بامتياز. ومن جهة أخرى فمن منّا يعيش حياة "مارك أوريل"؟ هنا يوجد الرجل ولا شىء أكثر من ذلك. إنه لم يكبر قسرًا، لكنه فقط أكثر قربًا منا من المعتاد. إنه "چان" Jean الذى يقلّم أشجاره، و"بيير" Pierre الذى بنى منزله. إنك أنت الذى تحدثنى عن الحصاد، وأنا الذى آخذ بيدك؛ لكننا نحن الاثنين وُضعنا فى النقطة التى نصل فيها إلى الآلهة، ونشعر بالدهشة مما نصنعه؛ لأننا لم نكن نعرف أن كل قوى النفس كانت حاضرة، ولم نكن نعلم أن كل قوانين الكون كانت تنتظر حولنا، والتفتنا ونظرنا دون أن نقول شيئًا مثل أُناس شاهدوا معجزة.

لقد جاء "إيمرسون" ليؤكد - بكل بساطة - هذه العظمة المتساوية والخفيّة لحياتنا، وقد أحاطنا بالصمت والإعجاب، ووضع بصيصًا من الضوء تحت خطوات الصانع الذى يخرج من ورشته. لقد أرشدنا إلى كل قوى السماء والأرض المنشغلة فى دعم العتبة التى يقف عليها جاران يتحدثان عن الماء، الذى يسقط أو عن الريح التى تهبّ. كما أنه يتجاوز اثنين من المادة يلتقيان، ويرينا وجه إله يبتسم فى وجه إله. إنه أكثر قربًا منا من أى شىء آخر فى حياتنا المعتادة. ويعتبر "إيمرسون" من أفضل أصحاب البصيرة، ومن أكثر الناس مثابرة ونزاهة ودقة، وربما من أكثرهم إنسانية. إنه حكيم الأيام العادية؛ لأن الأيام العادية ليست إلا مادة وجودنا، وتنقضى أكثر من سنة بلا آلام،

بلا فضيلة وبلا معجزات. علّمنا يا "إيمرسون" كيف نحترم الساعات القليلة للحياة. وإذا كنت قد استطعت أن أتصرف هذا الصباح طبقًا لفكر "مارك أوريل"، فلا ينبغى عليكم أن تبرزوا أعمالى؛ لأننى أعلم أنا أيضًا أن شيئًا ما قد حدث، لكن إذا كنت أظن أننى ضيّعت يومى فى أعمال صغيرة، وإذا كان بوسعكم أن تدللوا عن أننى عشت بعمق كما يعيش البطل، وأن نفسى لم تفقد حقوقها، فإنكم ستقومون بعمل أكبر مما لو كنتم أقنعتمونى بأن أنقذ عدوًا لى، لأنكم أكبرتم فى ذاتى مقدار عظمة الحياة والرغبة فيها، وربما أعرف غدًا كيف أعيش باحترام.

الفصل الثامن

"نوفاليس Novalis"[1]

يقول مؤلفنا: «يسير الناس عبر طرق مختلفة؛ ومن يتبعهم ويقارن بينهم سيرى نشأة وجوه غريبة»، وقد اخترت ثلاثة من هؤلاء الناس تؤدى بنا مسالكهم إلى ثلاث قمم مختلفة. لقد رأيت فى الأفق مؤلفات "روسبروك"، ومشارف الروح المائلة للزرقة وهى تتلألأ، بينما كانت مؤلفات "إيمرسون"، التى تمثل القمم الأكثر بساطة للقلب الإنسانى وهى تدور حول نفسها فى حركة غير منتظمة. أما هنا، فنجد أنفسنا على قمم مدببّة وخطيرة على العقل فى معظم الأحيان، ومع ذلك توجد فيها منتجعات يملأها ظل ظليل بين التعرجات المخضرة لهذه القمم، كما أن الجو فيها صاف مثل الكريستال.

ومن الجدير بالإعجاب أن نشاهد كم تختلف مسالك النفس الإنسانية حين تسير نحو ما يتعذر الوصول إليه، وهكذا يجب أن نتتبع للحظة آثار هذه النفوس الثلاثة التى ذكرتها للتّو. وقد ذهبت - كلٌّ فى سبيلها - بعيداً عن المراكز الأكيدة للإدراك المعتاد. وتواجهت كل منها مع حقائق غير متشابهة يتعين علينا - مع ذلك - أن نتلقاها كأخوات مُعجزات تم العثور عليها. والحقيقة الخافية هى التى تجعلنا نعيش ونحن عبيد لها باللاوعى وبالصمت، ونجد أنفسنا مقيدين ما دامت لا تظهر هذه الحقيقة، ولكن إذا

---

(١) فردريك نوفاليس: كاتب ألمانى ولد عام ١٧٧٢ ومات سنة ١٨٠١، وهو يجمع بين الصوفية والتفسير الرمزى للطبيعة، ومن أشهر قصائده: "أناشيد الليل"، "أتباع سايس Saïs"، وكتب رواية ناقصة عنوانها: هنرى دوفتردنجن. (المترجم).

اشتبه واحد من هذه الكائنات غير العادية التى تعتبر بمثابة هوائيات للنفس البشرية الواحدة وإن كانت متعددة، فى هذه الحقيقة للحظة واحدة وهو يتحسس فى الظلمات، فإن الآخرين منّا سيشعرون بالتحرر من شىء ما كرد فعل لا يمكن تفسيره، وستظهر حقيقة جديدة أكثر سموّاً وأكثر شفافية رغم غموضها، وستحل محل الحقيقة التى رأت نفسها قد انكشفت وآثرت الهروب بلا عودة. كما أن نفس الجميع ستبدأ - دون أن يكشفها أحد من الخارج - عصراً أكثر صفاء من الاحتفالات العميقة حيث لا يكون نصيبنا منها سوى جزء متأخر شديد البعد، وأعتقد أنها ستصعد بهذا الشكل وتسير إلى هدف تعرفه هى وحدها.

وكل ما يمكن أن نقوله ليس شيئًا فى ذاته، ولنضع فى كفّة ميزان كل كلمات الحكماء العظام، وفى الكفّة الأخرى حكمة اللاوعى التى يتمتع بها هذا الصبى المارّ أمامنا، وسترى أن كل ما أظهره لنا "أفلاطون"، و"مارك أوريل"، و"شوبنهاور" و"بسكال" لن يرفع لسطر واحد الكنوز العظيمة للاوعى، لأن الصبى الذى يصمت أكثر حكمة ألف مرة من "مارك أوريل" الذى يتحدث. ومع ذلك، فإذا لم يكن "مارك أوريل" قد كتب الفصول الاثنى عشرة لكتابه "التأملات" فإن قسماً كبيراً من الكنوز المجهولة التى يحويها هذا الصبى، لم يكن ليكون على هيئته التى نعرفها. وربما لا يكون بالاستطاعة الحديث بوضوح عن هذه الأشياء، لكن هؤلاء الذين يعرفون كيف يسألون أنفسهم بعمق كافٍ، وكيف يعيشون ولو لومضة خاطفة طبقًا لكل مكوّنات كينونتهم، يشعرون أن ذلك موجود. وربما يمكن - فى يوم ما - أن نكتشف الأسباب التى من أجلها لا تكون نفس الفلاّح، الذى لم يقرأ لأفلاطون و"سويدنبرج" و"بلوتان" ولم يسمع عنهم قط فى حالة ما إذا لم يوجدوا، على ما هى عليه اليوم بشكل قطعى، لكن مهما كان الأمر، فإن أية فكرة لا تضيع أبداً من أى نفس ومن سيذكر لنا أجزاءنا، التى لا يمكنها الحياة إلا بفضل الأفكار التى لم يُعبر عنها مطلقًا؟ ولوعينا أكثر من درجة، ولا يقلق أكثر الناس حكمة من أن وعينا يعتبر إلى حد ما لا وعى، لأن هـذا الوعى على وشك أن يكون ربانيًا، ويبدو أن زيادة هذا الوعى الشفاف كانت دائمًا رغبة مجهولة وسامية من جانب البشر. وليس من المهم كثيراً أن يجهل الناس هذا الوعى لأنهم يجهلون كل شىء، ومع ذلك

يتصرفون فى ذاتهم بحكمة مثل أكبر الحكماء. ومن الحقيقى أن معظم الناس لا ينبغى أن يعيشوا للحظة سوى اللحظة التى يموتون فيها. وانتظـاراً لذلك فـإن هـذا الوعى لا يزيد إلا بقدر ما يزيد ما لا يمكن شرحه حولنا. إننا نعمل على أن نعرف لنتعلم ألاّ نعرف، ولا نكبر إلا إذا عملنا على تضخيم الأسرار التى تتعبنا، ونحن عبيد لا يمكنهم أن يحتفظوا فى داخلهم بالرغبة فى الحياة إلا بشرط أن يزداد ثقل أغلالهم دون رحمة ودون أن تثبط همتهم أبداً...

ويعتبر تاريخ هذه القيود الرائعة هو تاريخنا الوحيد؛ لأننا لسنا سوى سر غامض؛ ولأن ما نعرفه ليس مهماً. وحتى الآن، لا يعتبر التاريخ طويلاً، وهو يُختصر فى بضع صفحات، وقد يقال إن أفضل الناس يخشون أن يفكروا فيه. من هم القليلون الذين تجرءوا على السير إلى أقصى الفكر الإنسانى! اذكروا لى أسماء أولئك الذين ظلوا بضع ساعات فى هذا الفكر... لقد وعد أكثر من واحد بهذا وقام به البعض للحظة، ولكن سرعان ما كانوا يفقدون – كل بدوره – القوة اللازمة للعيش هنا، وكانوا يتساقطون ناحية الحياة الخارجية، وفى المجالات المعروفة للعقل الإنسانى «وكان كل شيء يطفو من جديد أمام الأعين، كما كان الحال فى السابق».

وفى الواقع، من الصعب أن يستجوب المرء نفسه ويتعرف على صوته الطفولى أيام الصبا وسط الصيحات غير المفيدة التى تحيط به، ورغم هذا فعندما نفكر فى جهود العقل لا نجد لذلك أهمية كبيرة، نظراً لأن حياتنا العادية تمر بعيداً عنا! وقد يقال إن هناك لا يوجد سوى أشباهنا، وسوى ساعات فارغة طائشة وعقيمة؛ لكن هنا نجد النقطة الثابتة الوحيدة لوجودنا ونجد أيضاً مكان الحياة. ويجب أن نلجأ لهذا المكان باستمرار، ونحن نعرف كل الباقى قبل أن يقال لنا. وهنا نتعلم أكثر ونقول كل ما يمكن أن نقوله؛ وفى اللحظة التى تتوقف فيها الجملة وتختفى فيها الكلمات، تواجه فيها نظرتنا القلقة، فجأة وعبر سنوات وقرون، ونظرة أخرى كانت تنتظرها بصبر على طريق الله. وتتغامز الجفون وتبتل العيون بالندى الرقيق المريع، الذى ينشأ من هذا السر الغامض المتماثل، ونعرف عندئذ أننا لم نعد وحدنا فى الطريق الذى لا نهاية له.

لكن أين هى الكتب التى تحدثنا عن مكان الحياة هذا؟ إن علماء ماوراء الطبيعة لا يكادون يلامسون هذا الموضوع؛ لأن حدوده قد تم تجاوزها، وإذن ماذا تبقى بعد ذلك؟ بعض الصوفيين الذين يبدون كالمجانين، لأنهم ربما كانوا يمثلون طبيعة فكر الإنسان نفسه لو كان لديه الوقت أو القدرة على أن يكون إنسانًا حقيقيًا. ولأننا نحب – من قبل – كل أساتذة العقل العادى مثل "كانت" و"سبينوزا" و"شوبنهاور" وغيرهم، فلا ينبغى أن يكون هذا الحب سببًا كى نرفض أساتذة عقل أخوى مختلف ربما يكوّن عقلنا المستقبلى، وانتظارًا لذلك، ذكر لنا هؤلاء الفلاسفة أشياء لابد منها.

افتح كتب أكبر علماء الأخلاق أو علماء علم النفس العاديين، فستجد أن كلاً منهم يتحدث عن الحب، والكراهية، والكبر، وعن عواطف قلبنا الأخرى؛ ويمكن لهذه الأشياء أن تعجبنا للحظة مثلما تعجبنا الورود المقطوفة من سيقان أشجارها، لكن حياتنا الحقيقية التى لا تتغير، تمضى على بعد ألف فرسخ من الحب، ومائة ألف فرسخ من الكبرياء. إن لنا ذاتًا لا تنضب وأكثر عمقًا من العواطف أو العقل المجرد.

ولا يتعلق الأمر بأن يقال لنا ما نشعر به عندما تهجرنا عشيقتنا، فهى قد تغادر اليوم، وتبكى عيوننا لكن نفسنا لا تبكى. وقد يحدث أن تعلم النفس بما حدث، وتحوله إلى ضياء؛لأن كل ما يسقط فيها يكون مشعًا، وقد يحدث أيضًا أن النفس تجهل الحدث، وإذن فما جدوى الحديث عنه.

يجب أن نترك هذه الأشياء الصغيرة لمن لا يشعرون بأن الحياة عميقة. هل لو قرأت "لاروشوفوكو" **La Rochefoucauld** أو "ستندال" **Stendhal** هذا الصباح، فهل تعتقدون أننى اكتسبت أفكارًا تزيد من إنسانيتى، وأن الملائكة التى ينبغى أن نقترب منها صباحًا ومساءً ستجدنى أكثر جمالاً؟ إن كل ما لا يتجاوز الحكمة التجريبية واليومية لا يخصّنا وليس جديرًا بنفسنا، وكل ما يمكن أن نتعلمه دون قلق، يصغر من شأننا.

وقد أبتسم بمشقة لو استطعت أن تبرهن لى أننى كنت أنانيًا حتى فى مجال التضحية بسعادتى وبحياتى، لكن ماذا تساوى الأنانية بالنسبة إلى غيرها من الأمور القوية التى أشعر أنها تعيش فى داخلى لحياة تجلّ عن الوصف؟ إن القوانين الشفافة لوجودنا

لا توجد على عتبة العواطف. وقد يحدث - فى لحظة ما - ألاّ تفيدنا ولا تصل إلى حياتنا بعض ظواهر الوعى الاعتيادى، التى يمكن أن نسميه الوعى العاطفى أو وعى علاقات الدرجة الأولى. وأنا أوافق على القول بأن هذا الوعى يكون غالباً مهماً من جهة ما وأنه من الضرورى أن نعرف ثناياه، لكنه ليس سوى نبات على السطح وجذوره تخشى الحريق المركزى الكبير لوجودنا، وفى إمكانى أن أرتكب جريمة دون أن تقوم أية رياح خفيفة بإمالة أصغر قبس من هذه النار، إلا أنه من جانب آخر، يمكن لأى نظرة متبادلة أو لأى فكرة لم تكتمل بعد، أو لأى دقيقة تمضى دون كلام، أن تزيد من سعير هذه النار وتحولها إلى زوبعات فظيعة، داخل النفس بحيث تفيض على حياتى نفسها. ونفسنا لا تصدر الأحكام مثلما نفعل نحن، إنه أمر خفى يتعلق بأهوائها، وهذا الشىء يمكن أن تصيبه لفحة ويتجاهل العاصفة ويجب البحث فيما يصيب هذا الشىء لأى كل شىء هناك، ونحن موجودون هناك.

وهكذا، ولكى نعود إلى هذا الوعى الاعتيادى الذى يسود على مسافات كبيرة من نفسنا، أقول إننى أعرف أكثر من عقلية لم يعد يدهشها التصوير الرائع لغيرة "أوثللو" على سبيل المثال، وقد كان هذا التصوير نهائيًا فى المراحل الأولى للإنسان، وسيظل جديراً بالإعجاب شريطة ألا نفتح الأبواب ولا النوافذ. وبدون ذلك، فإن الصورة ربما تسقط متناثرة كالترام أمام كل مجهول يوجد فى الخارج. ونحن نستمع إلى حوار "مور" "More" و"ديدمونة" "Desdémone"، كأنه شىء كامل رغم أنه لا يمنعنا من التفكير فى مسائل أكثر عمقًا. وسواء انخدع مقاتل إفريقى أمام جمال فينيسياً أم لا، فإن له حياة أخرى تمر فى ذاته وحول وجوده فى اللحظة نفسها، التى تبدو فيها شكوكه وغضبه الشديد أمام أحداث كبرى لا يمكن لزئيره أن يعكرها، ومن خلال الاضطرابات السطحية للغيرة يتتابع وجود غير محسوس لم تظهره عبقرية الإنسان حتى الآن إلا بصفة عابرة.

فهل من كل ذلك يولد الحزن الذى يصدر من الأعمال الأدبية الكبرى؟ إن الشعراء لم يتمكنوا من كتابة هذه الأعمال إلا عندما أغمضوا أعينهم فى الآفاق الرهيبة، وعندما فرضوا الصمت على أعلى الأصوات وأكثرها فى نفوسهم، ولو لم يكونوا قد

فعلوا ذلك لفقدوا شجاعتهم. وليس هناك ما هو أكثر حزنًا وإحباطًا من عمل أدبى كبير؛ لأن شيئًا آخر لا يمكنه أن يُظهر - بأفضل الصور - عجز الإنسان عن الوعى بعظمته وعزته. وإذا لم يكن هناك صوت ينبهنا بأن أجمل الأشياء لا تعتبر شيئًا بالنظر لكينونتنا، فإن غياب هذا الصوت سيقلل من شأننا أكثر.

ويقول "إيمرسون" إن النفس تتفوق على كل ما يمكن أن نعرفه عنها، وتعتبر أكثر حكمة من كل ما يصدر عنها من أعمال، ويجعلنا الشاعر الكبير نشعر بقيمتنا الحقيقية، وعندئذ لا نقدر ما أنجزه حق قدره.

لكن أفضل شيء علمنا إياه هذا الشاعر، هو ازدراء كل ما فعله، ويأخذنا "شكسبير" إلى تيار شديد السموّ من النشاط الذكى إلى حد أن يقترح علينا أن نقوم بما هو أكثر ثراء يبدو معه أن ما فعله هو ضئيل، وآنذاك نشعر أن الأعمال العظيمة التى أبدعها - والتى تسمو بنا إلى قمة الشعر الذى يوجد بذاته - لم تعد تنتسب بعمق إلى الطبيعة الحقيقية للأمور، وتظهر كأنها ظل عابر لأحد المارين فوق صخرة.

وليست الصيحات العظيمة للقصائد والتراچيديات الكبرى شيئًا آخر سوى صيحات صوفية لا تتعلق بالحياة خارج هذه *القصائد* أو خارج هذه *التراجيديات*. وتنشأ هذه القصائد للحظة من الحياة الداخلية وتجعلنا نأمل فى شيء غير منتظر، وإن كنا ننتظره بفارغ الصبر! إلى أن تغطيه العواطف - مرة أخرى - بجليدها. وفى تلك اللحظات توجد الإنسانية للحظة مع نفسها، كما يوجد إنسان مع ملك. ومع ذلك فمن المهم أن توجد *الإنسانية* فى معظم *الأوقات* مع نفسها لتعرف ما هى. ولو نزل كائن إلينا من عالم آخر وطلب منا أفضل زهور نفسنا، والألقاب النبيلة فى الأرض، فماذا سنعطيه؟ سيُحضر له البعض الفلاسفة دون أن يعرف ماذا يفعلون. وقد نسيت أن أقول إن شخصًا آخر قد يرد على هـــذا التساؤل قائلاً: إنه سيقدم له "أوثللو" "**Othello**"، أو "الملك لير" أو "هاملت". حسنًا، إننا لسنا على هذا النحو! وأعتقد أن نفسنا قد يذهب بها الأمر إلى حد أن تموت داخل أجسادنا من العار؛ لأنها لا تجهل أن كنوزها المرئية لم تصنع لتكون منفتحة أمام عيون الأجانب، حيث إنها لا تحوى إلا مجوهرات مزيفة. ويشعر أبسط واحد منا - فى لحظات الوحدة التى يعرف فيها ما يجب أن يعرفه المرء -

بأن من حقه أن يقدم نفسه بصورة أخرى غير أعماله الأدبية الرائعة. إننا مخلوقات غير مرئية، ولن يكون أمامنا ما نقوله لمبعوث السماء، ولا ما نريه إياه، وفجأة ستظهر لنا أجمل الأشياء عندنا مثل المخلفات العائلية الضئيلة التى كانت تبدو لنا ثمينة جداً فى الدُّرج الموضوعة فيه، والتى تصبح زهيدة جداً حينما نخرجها للحظة من الظلام لنريها لمن لا يكترث بها. إننا كائنات غير مرئية لا تعيش إلا فى ذاتها، وسينصرف الزائر المنتبه، دون أن يشك فيما كان يمكنه أن يراه، اللهم إلاَّ إذا تدخلت نفسنا المتسامحة فى هذه اللحظة. والنفس تهرب طواعية جداً أمام الأشياء الصغيرة، ونتعب كثيراً فى إيجادها - مرة أخرى - فى الحياة، إلى حد أننا نخشى استدعاءها لمعاونتنا. ومع ذلك، فهى دائمًا حاضرة، وهى لا تخدع نفسها ولا تخدع أحداً، مادامت مستقرة فى مكان، وهى قد تُظهر للمبعوث غير المنتظر، الأيدى المضمومة للإنسان، وعينيه المغمورة جداً بالأحلام التى ليس لها اسم، وشفتيه اللتين لا تقولان شيئًا. أما المبعوث، فربما لا يجرؤ على السؤال رغم جدارته بالفهم.

وإذا كان يلزم له براهين أخرى، فإن النفس ستصحبه إلى هؤلاء الذين تتعلق أعمالهم بالصمت، وستفتح المجالات التى يحبها فيها البعض لذاتها، دون الاكتراث بحركات جسمها الصغيرة، وسيصعد الاثنان إلى أعالى الهضبات المنعزلة، حيث يرتفع الوعى درجة، وحيث يتسكع كل من يقلقون من أنفسهم حول الدائرة المتوحشة التى تربط العالمَ الظاهر، إلى عوالمنا العليا. وستذهب النفس مع المبعوث إلى حدود الإنسان؛ لأنه فى المكان الذى يبدو فيه الإنسان على وشك النهاية، تبدأ البداية التى لا توجد أجزاؤها الرئيسية التى لا تنفذ إلا فيما هو غير مرئى، وحيث يجب أن يكون الإنسان فى حالة ترقب مستمرة. وعلى هذه الأعالى وحدها توجد الأفكار التى يمكن أن تفصح عنها النفس، وتلك التى يمكن أن تشبهها وتكون قاهرة مثلها، وهناك سادت الإنسانية لبرهة؛ وربما كانت تلك المناطق ذات النور الضعيف بمثابة الأضواء الوحيدة، التى تبين الأرض فى الأماكن الروحية، وانعكاساتها لها بالفعل هى لون نفسنا. ونحن نحس أن عواطف العقل والقلب تبدو فى ظل العقلية الغريبة، مشابهة لتضارب أصوات أبراج الأجراس؛ لكن الناس الذين أتحدث عنهم، يخرجون، طبقًا لمؤلفاتهم - من قرية العواطف الصغيرة - ويتحدثون عن أمور يمكن أن تهم من هم خارج الأبراشية الأرضية.

ولا ينبغى أن تتحرك إنسانيتنا فقط فى عمق المرء مثل قطيع من الطوبيين[٢] وعلى الإنسان أن يعيش كما لو كان عليه ذات يوم أن يقدم كشفًا عن حياته إلى أشقائه الكبار. ولا يعتبر العقل المنطوى على نفسه، إلا شيئًا معروفًا بصفة محلية، يثير ابتسام المسافر الرّحّال، ذلك لأنه يوجد شيء غير العقل، إذ إن العقل ليس هو الذى يربطنا بالكون. وقد حان الوقت كى لا نخلطه مع النفس، ولا يتعلق الأمر بما يحدث بيننا، لكن بما يحدث فينا متجاوزًا العواطف والعقل. وإذا لم أقدم للفكر الخارجى سوى "لارشوفوكو" "La Rochefoucauld"، و"ليختبرج" "Lichtenberg"، و"ميريدث" "Meredith" أو "ستاندال"، فإنه سينظر إلىّ، كما أنظر أنا، فى عمق مدينة ميتة، إلى بورجوازى فاقد الأمل يحدثنى عن الشارع الذى يقيم فيه، وعن زواجه وصناعته. ما هو ذلك الملك الذى سيسأل "تيتوس" "Titus" لماذا لم يتزوج "بيرينيس" "Bérénic"، ولماذا كانت "أندروماك""Andromaque" من نصيب "بيروس" "Pyrrhus"؟ ماذا تعنى "بيرنييس" "Bérénice" إذا قارنتها بما هو غير مرئى بتلك المتسولة، التى تستوقفنى أو العاهرة التى تشير إلىّ؟ إن الكلمة الصوفية تستطيع وحدها أحيانًا، أن تمثل كائنًا إنسانيًا، لكن نفسنا ليست فى هذه المناطق الأخرى التى لا يوجد فيها ظل ولا حُفر، وأنت أيضًا ألا تتوقف فيها فى ساعات الشدة التى تثقل فيها الحياة كاهلك؟ إن الإنسان ليس فى هذه الأشياء، ومع ذلك فإن هذه الأشياء كاملة، ولكن لا ينبغى الحديث عنها إلا فى ذاتك، ومن المناسب ألا نتحدث عنها إذا طرق بابنا أحد الزوّار ذات مساء، لكن إذا فاجأنى هذا الزائر فى اللحظة التى تبحث فيها نفسى عن مفتاح خزائنها الأقرب إليها فى "بسكال" "Pascal"، و"إيمرسون" "Emerson" أو "هيللو" "Hello"، أو حتى فى أعمال أولئك الذين قلقوا على الجمال الشديد الصفاء. ولن أغلق هذا الكتاب وأنا محمّر الوجه؛ وربما تتولد لدى "نوفاليس" "Novalis" نفسه فكرة وجود مخلوق شقيق له كتب عليه الصمت، أو ربما سيعلم على الأقل أننا لم نكن جميعًا سكانًا راضين عن الأرض.

---

(٢) نوع من الحيوانات يأكل الحشرات. (المترجم)

الفصل التاسع

"المأساة اليومية"

توجد مأساة يومية أكثر واقعية وعمقًا وتناسبًا مع وجودنا الحقيقى، وأكبر من مآسى المغامرات الكبرى. ومن السهل أن نشعر بها، لكن ليس من اليسير إظهارها، لأن هذه المأساة الأساسية ليست مجرد تراجيديا مادية أو نفسية، إذ لم يعد الأمر هنا متعلقًا بالصراع الذى يحتدم بين كائن وآخر، أو بتنازع رغبة مع رغبة أخرى، أو بالمعركة الأزلية بين العاطفة وبين الواجب، لكن ما يتعلق بإظهار كلّ ما هو مدهش فى موضوع الحياة وحدها، وبصفة خاصة ما يتصل بوجود نفسىٍّ ما فى ذات الحياة، وفى ظل هذه اللانهائية المتسعة التى لا تكون أبدًا بلا حراك. وعلى الأخص؛ نجد أن الأمر يتعلق بالاستماع إلى حوار متقطع أكثر مهابة، عن الكائن البشرى ومصيره يتجاوز الحوارات العادية للعقل والمشاعر، ويتعلق الأمر على الأحرى، بجعلنا نتتبع الخطوات المتعثرة والمؤلمة لكائن يقترب أو يبعد عن حقيقته، وعن جماله، أو عن إلهة؛ وكذلك يجعلنا نسمع آلاف الأشياء المتشابهة التى أظهرها لنا - بصفة عابرة - شعراء التراجيديات. وهذه هى النقطة الرئيسية: ألا يمكن أن يكون ما أظهروه لنا - بشكل عابر - هو ما نحاول نحن إبداءه قبل غيره؟ ألا يكون ما نسمعه عن الملك "لير" Lear، وماكبث، وهاملت، على سبيل المثال، هو الترنيمة الغامضة للانهائية، أو الصمت الذى يهدد النفوس أو الإلهة، أو الخلود الذى يهتز فى الأفق، أو المصير الذى نحسه داخليًا دون أن نذكر العلامات التى تجعلنا نتعرف عليه. ألا نستطيع بطريقة ما وبتبادل للأدوار، أن نقرب كل ذلك منّا فى الوقت الذى يبعد فيه صانعو هذه الأمور؟ وإذن فهل من المجازفة أن نؤكد أن

مأساة الحياة، المأساة المعتادة، أو العميقة والعامة، لا تبدأ إلا فى الوقت الذى يحدث فيه ما نسميه مغامرات أو آلام أو أخطار؟ أليس للسعادة ذراع أطول من التعاسة، وأليست بعض قواها تتقارب أكثر من النفس الإنسانية؟ هل يتعين بالضرورة أن نصيح مثل أفراد عائلة "الأتريد" "Atrides" حتى يظهر إله خالد فى حياتنا، وألا يأتى هذا الإله أبداً ليجلس تحت مصباحنا الثابت.

ألا يعتبر الهدوء شنيعًا عندما نفكر فيه وعندما تراقب الكواكب؛ وألا ينتعش معنى الحياة وسط الصخب أو الصمت؟ ألا يدخل فى نفوسنا القلق الشديد عندما يقال لنا فى نهاية الحكايات: «وكانوا سعداء»؟ ألا تفصح السعادة أو حتى مجرد لحظة راحة عن أمور أكثر أهمية وأكثر استقراراً من تقلبات العواطف؟ ألا يبدو سير الزمن، وعدد كبير آخر من المسيرات الخفية أكثر وضوحًا فى نهاية المطاف وألا تبدو الساعات متسارعة؟

ألا يؤثر كل ذلك فى أوتار أكثر عمقًا من مجرد طعنة خنجر فى الدراما المعتادة؟ ألا تفتح المأساة الغريبة الصامتة للكائن البشرى وللانهاية أبواب مسرحها، عندما يظن الإنسان أنه بمنأى عن الموت الخارجى؟ هل يصل وجودى إلى أهم نقطة له فى الوقت الذى أتحاشى فيه طعنة سيف حاد. هل توجد أسمى درجات وجودى دائمًا فى قُبلة؟ ألا توجد لحظات أخرى نسمع فيها أصواتًا أكثر ثباتًا وأكثر نقاء؟ ألا تظهر نفسك إلا فى أعماق ليالى العاصفة؟ قد يقال إن الناس ظنوا ذلك حتى الآن؟ إن كل مؤلفى التراجيديا عندنا لا ينتبهون إلا إلى الحياة الماضية، ويمكننا أن نؤكد أن مسرحنا مغلوط تاريخيًا وأن الفن الدرامى يتأخر بقدر السنوات نفسها التى تأخر بها فن النحت. لكن الأمر يختلف بالنسبة للتصوير الزيتى والموسيقى الجيدة على سبيل المثال، إذ إنهما عرفا كيف يتخلصان من ذلك وأن يُظهرا ملامح أكثر خفية، لكن ليست أقل أهمية ودهشة من الحياة اليوم. لقد لاحظنا أن هذه الحياة لم تفقد من شأنها فى السطح الزخرفى إلا لكى تزيد فى العمق، وفى المعنى الخصوصى، والجديّة الفكرية. ولم يعد الرسام الجيد يقوم برسم "ماريوس" **Marius** قاهر السامبرين **Cimbnes**، أو يصور فى لوحاته اغتيال دون دى "جيز" **Cjuise**، لأن سيكلوجية الانتصار أو القتال أصبحت بدائية واستثنائية،

ولأن الضجة غير المفيدة لأى عمل عنيف، تخفت أكثر الأصوات عمقًا وسرية وترددًا بين البشر والأشياء، سيقوم الفنان برسم منزل بعيد فى الريف، أو باب مفتوح فى نهاية ردهة، أو بتصوير وجه أو أياد فى حالة استرخاء؛ وكل هذه الصور البسيطة يمكن أن تضيف شيئًا ما لوعينا بالحياة؛ وهذا شىء طيب لم يعد ممكنًا أن نفقده.

ولكن مؤلفينا التراجيدين، وكذلك الرسامين منخفضى المستوى الذين يتوقفون عند رسم التاريخ، يركزون كل اهتمامهم فى أعمالهم، على تصوير العنف القصصى الذى يصورونه. ويزعمون أنهم يقومون بالترويح عنا – بنفس نوع الأعمال التى تسرّ البربر المعتادين على القتل والخيانة – هذا فى الوقت الذى تسير فيه معظم أمور حياتنا بعيدًا عن الدم والصاروخ والسيوف، وأصبحت صامتة غير مرئية وروحية تقريبًا..

وعندما أذهب للمسرح، يبدو لى أننى أوجد لبضع ساعات وسط أجدادى القدماء الذين كان لديهم تصور بسيط للحياة، جاف ووحشىّ، لم أعد أذكره ولا يمكننى الإسهام فيه. إننى أرى زوجًا مخدوعًا يقتل زوجته، أو امرأة تقوم بدس السم لعشيقها، أو ولدًا ينتقم لأبيه، أو والدًا يقتل أبناءه، أو أبناء يقتلون أباهم، أو ملوك يتم اغتيالهم، أو عذراوات يغتصبن، أو برجوازيين سيجنون، وكل نواحى العظمة التقليدية؛ لكن للأسف كل ذلك سطحى ومادى ملىء بالدم والدموع الخارجية والموت. ماذا يمكن أن يقول لى أناس ليس لديهم إلا فكرة ثابتة، وليس لديهم الوقت ليعيشوا، لأنه يتعين عليهم أن يقتلوا غريمًا أو عشيقة؟

وقد ذهب بى الأمل إلى أن أرى كل أمور الحياة، وقد ربطت بأصولها وأسرارها بأربطة ليس لى الفرصة أو القدرة على أن ألمح جمالها للحظة، وألمح عظمة وقوة وجودى اليومى المتواضع. كنت أود أن أرى مدى الحضور ومدى القوة، أو أى آلة تعيش معى فى غرفتى. كنت أنتظر دقائق سامية لا أعرفها، وأنا موجود وسط ساعاتى التعسة. ولم أعد أكتشف كثيرًا الإنسان الذى أسهب فى أن يقول لى لماذا يشعر بالغيرة ولماذا يقوم بتسميم الآخرين أو لماذا يقتل نفسه؟

إننى أعجب "بأوثللو" "Othello"، لكن لا يبدو لى أنه يعيش الحياة اليومية العظيمة "لهاملت" "Hamlet"، الذى يجد لديه الوقت ليعيش لأنه لا يتحرك. إن "أوثللو" غيور بشكل رائع، لكن أليس من الخطأ البائد أن نعتقد فى اللحظات التى تمتلكنا فيها العاطفة وغيرها من المشاعر المماثلة، أننا نعيش حقيقة؟ لقد حدث أن اعتقدت أن شيخًا جالسًا ينتظر على مقعده الوثير فى ضوء المصباح مصغيًا إلى كل القوانين الأبدية، التى تسود حول منزله ومفسرًا - دون أن يفهم - كل ما يوجد فى صمت الأبواب والنوافذ، وسامعًا لصوت النور الخافت، ومحتملاً لوجود نفسه وقدره، ومميلاً رأسه قليلاً دون أن يشك فى أن كل قوى هذا العالم تتدخل وتسهر فى الغرفة مثل الخادمات المنتبهات، وجاهلاً أن الشمس نفسها تمسك - من فوق الهُوة - بالمنضدة الصغيرة التى يستند إليها، وأنه لا يوجد نجم فى السماء ولا قوة للنفس لا تكون غير مكترثة بحركة جفن العين الذى ينخفض، أو بفكرة ترتفع، حدث لى أن اعتقدت أن هذا الشيخ الذى لا يتحرك، يعيش فى الواقع حياة عميقة أكثر إنسانية وأكثر عمومية من تلك التى يعيشها عاشق يخنق عشيقته، أو قائد يحرز انتصارًا أو «زوج ينتقم لشرفه».

وسيقال لى إن الحياة الثابتة لا يمكن أن تكون واضحة كثيراً، وإنه يجب تحريكها ببعض الحركات، وإن هذه الحركات المتنوعة والمقبولة لا توجد إلا فى هذا العدد الصغير من العواطف المستخدمة حتى الآن، وأنا لا أعرف ما إذا كان المسرح الاعتدالى مستحيلاً. ويبدو لى أنه موجود. وتعتبر معظم مسرحيات "أخيل" "Eschyle" تراجيديات ثابتة، وأنا لا أتحدث عن مسرحية "بروميتيه" "Prometée" أو عن مسرحية "البديلات" "les Suppliantes" حيث لا يحدث شىء، لكن عن المسرحية التراجيدية "كيوفور" "Cohoéphores"، التى تعتبر أفظع مسرحية درامية قديمة تتعثر، كما لو كانت كابوسًا يحدث أمام مقبرة أجاممنون، إلى أن يقع حادث القتل كالبرق من جراء تراكم الدعوات التى تنطوى على نفسها باستمرار. ولنبحث - عند وجهة النظر هذه - بعضًا من أجمل تراجيديات القدماء: "الإيمينيد" "les Eumenides" أو "أنتيجون" "Antigone" أو "إلكترا" "Electre" أو "أوديب" فى كولونوس. يقول الشاعر المسرحى الفرنسى "راسين" "Racine" فى مقدمة مسرحيته "بيرنييس" "Berenice": «لقد أعجبوا بمسرحة "أجاكس" "Ajax"

للكاتب المسرحى "سوفوكليس" "Sophocle"، وهى ليست شيئًا آخر غير أجاكس الذى يقتل نفسه من الأسف بسبب الغضب الذى وقع فيه بعد رفض تلقيه أسلحة "أخيلوس" "Achille"، وقد أعجبوا أيضًا بمسرحيته "فيلوكتيتس" "Philoctète" رغم أن موضوعها هو "أوليس" "Ulysse"، الذى حضر ليفاجئ سهام "هرقل". بل إن مسرحية "أوديب" نفسها - رغم أنها مليئة بالاعترافات، تعتبر أقل ازدحامًا بالأحاديث المادية من أقل مسرحية تراجيدية فى أيامنا هذه».

فهل هذا شىء آخر غير الحياة الثابتة تقريبًا؟

من المعتاد ألا يوجد حدث نفسى يتجاوز ألف مرة الحدث المادى، الذى يبدو أمرًا لا مفر منه؛ لكن كُتاب المسرح يستطيعون تقنينه أو الحذف منه بطريقة رائعة؛ حتى لا يكون هناك اهتمام إلا بما يوحى به وضع إنسان فى الكون. ونحن هنا لم نعد نكون عند البرابرة، ولم يعد الإنسان يتحرك وسط العواطف الأولية، التى لا تعتبر وحدها أشياء مهمة فى حد ذاتها. وبوسعنا أن نرى هذا الإنسان على راحتنا، فلدينا الوقت؛ ذلك لأن الأمر لم يعد يتعلق بلحظة استثنائية وعنيفة من الوجود، لكن بالوجود نفسه. وهناك ألف قانون أكثر قدرة واحترامًا من قوانين العواطف؛ لكن تلك القوانين بطيئة وسرية وصامتة، تمامًا مثل الذى تكون لديه قوة لا تقاوم، ولا تلاحظ ولا تسمع إلا فى منتصف النهار وساعات التأمل الهادئة فى الحياة.

وعندما قدم "أوليس" "Ulysse"، "ونيو بتوايم" "Néoptoième" ليطلبا أسلحة "هرقل" من "فيلوكتيتس" "Philoctète"، كان سعيهما فى حد ذاته بسيطًا غير ذى بال، تمامًا مثل إنسان فى أيامنا يدخل منزلاً ليعود فيه مريضًا، أو مثل ابن سبيل يطرق باب فندق، أو مثل أم تنتظر عودة ابنها بجوار المدفأة. ويميز "سوفوكليس" Sophocle بشكل سريع عابر، صفات أبطاله لكن ألا يمكننا أن نؤكد أن الاهتمام الرئيسى للتراجيديا لا يوجد فى الصراع الذى لا نراه فيها بين المهارة والود، بين رغبة الوطن وبين الأحقاد وعناد الكبرياء؟ وهناك شىء آخر يتمثل فى الوجود السامى للإنسان الذى سيتم مشاهدته. ويضيف الشاعر إلى الحياة العادية شيئًا لا أعرفه يعتبر من أسرار الشعراء،

ويظهر فجأة في عظمته المعجزة، وفي انصياعه لقوى غير معروفة بعلاقاتها التي لا تنتهي، وفي بؤس مهيب. ولنتصور أحد الكيميائيين، وهو يترك بعض النقط الغريبة تسقط في دورق لا يبدو أنها تحتوي إلا على ماء صافٍ: على الفور تطفو بللورات كثيرة حتى الحافة، وتظهر لنا المادة المعلقة في هذا الدورق، رغم أن عيوننا لم تلاحظ شيئًا من قبل. وهذا يبدو في مسرحية "فيلوكتيتس" "Philoctete" أن التحليل النفسي البسيط للشخصيات الرئيسية الثلاث، ليس سوى ساتر للدورق الذي يحتوي على الماء الصافي، الذي يمثل الحياة العادة التي يسقط فيها الشاعر النقط التي تُظهر عبقريته..

وأيضًا لا يوجد الجمال والعظمة في المسرحيات الكبيرة الجميلة في الأفعال، لكن في الكلام. لكن هل يوجد ذلك فقط في الكلام الذي يصاحب ويشرح الأفعال؟ لا، بل يجب أن يوجد شيء آخر غير الحوار الخارجي الضروري، ولا توجد غالبًا غير الكلمات التي تبدو غير ذات فائدة في البداية، وإن كان يحسب حسابها في العمل المسرحي. وفيها توجد روح المسرحية، وإلى جانب الحوار - الذي لا بد منه - يوجد حوار آخر يبدو غير ضروري. ابحث هذه المسألة بعناية، وستجد أن مثل هذا الحوار هو الوحيد الذي يمكن للنفس أن تستمع إليه بعمق، لأننا نحدثها في هذا المكان فقط. وستكتشف أيضًا أن نوعية ومساحة هذا الحوار غير المفيد هما اللذان يحددان النوعية والأهمية القصوى للعمل الأدبي. ومن المؤكد أنه - في المسرحيات الدرامية العادية - لا يتفق هذا الحوار الضروري مع الحقيقة؛ وأن ما يحقق هذا الجمال الغامض في أجمل التراجيديات يتمثل في الكلمات، التي تُقال بجانب الحقيقة الملزمة الظاهرة. كما أن هذا الجمال يوجد في الكلمات المتوافقة مع حقيقة أكثر عمقًا وتجاورًا مع النفس غير المرئية التي تدعم القصيدة. بل يمكننا أن نؤكد أن القصيدة تقترب من الجمال والحقيقة العليا بقدر ما تُستبعد الكلمات التي تشرح الأفعال لتحل محلها كلمات تفسر وتحلل، ليست "حالة نفسية"، لكن جهودا مستمرة لا أعرفها ولا أفهمها تقوم بها النفوس لتتجه إلى جمال هذه القصائد وحقيقتها. وفي ضوء ذلك أيضًا تقترب القصيدة من الحياة الحقيقية، ويحدث لكل إنسان في الحياة اليومية أن يقوم بالعمل على أن يجد حلاً لوضع خطير جداً. فكر لحظة في هذا الأمر. هل ما تقوله أو ما تسمعه من إجابات هو

أكثر الأشياء أهمية فى هذه اللحظات دائمًا أو حتى هو الأكثر اعتيادًا؟ ألا تتدخل قوى أخرى وكلمات غير مسموعة أخرى لتحدد مصير الحديث؟ إن ما أقــوله يعد – فى معظم الأحيان – قليل الأهمية ولكن حضورى والموقف الذى تتخذه نسى مستقبلى وماضىّ وما يتولد منى، ويموت فىّ، وفكرى السّرى، والنجوم التى تتوافق معى، وقدرى، وآلاف الأشياء الغامضة التى تحيط بى وتحيط بك، كل ذلك هو الذى يتحدث إليك فى هذه اللحظة المأساوية ويردّ عليك. وكل هذا يوجد تحت كل كلمة من كلماتى وكلماتك، وهو ما نراه وما نسمعه بصفة خاصة رغمًا عنّا. وإذا كنت قادمًا أيها «الزوج المهان»، وأيها «العاشق المخدوع»، وأيتها «المرأة المهجورة»، لتقصد قتلى، فإن أكثر توسلاتى بلاغة إليك ليست هى التى ستوقف ذراعك، لكن ربما يحدث أن تقابل إحدى هذه القوى غير المنتظرة، وأن تقول لك نفسى، التى تعرف أن هذه القوى تحمينى وتحيط بى، كلمة سرية تجعلك تلقى سلاحك. وها هى المجالات والمغامرات تتخذ قراراتها. وذلك هو الحوار الذى يتعين أن نسمع صداه، حقيقة أن هذا الصدى الذى نسمعه يضعف ويتنوع فى بعض الأعمال الأدبية الكبرى التى كنت أتحدث عنها، لكن ألا يمكن أن نحاول الاقتراب أكثر من هذه المجالات التى تجرى فيها كل الأمور «فى الحقيقة؟».

يبدو أن البعض يحاول ذلك، «ومنذ بعض الوقت – وبمناسبة إحدى المسرحيات الدرامية للمؤلف المسرحى "إبسن" "Ibsen"[١]، حيث نستمع فيها إلى أكثر حوارات الدرجة الثانية مأساوية، وهى مسرحية "سولنيس البنّاء **Solness le Constructeur** – كنت أحاول، بطيش كبير، أن أخترق هذه الأسرار، ومع ذلك فإن محاولاتى – التى تشبه يد الأعمى – الموضوعة على جدار، كانت تتجه أيضًا نحو البصيص نفسه من الضوء. وكنت أتساءل عما إذا كان المؤلف قد أضاف فى مسرحية "سولنيس" شيئًا إلى الحياة كى تبدو لنا غريبة جدًا وعميقة جدًا ومقلقة جــدًا تحت ستار صبيانيتها الخارجية؟

(١) هنريك إبسن: كاتب نرويجى ولد سنة ١٨٢٨ ومات سنة ١٩٠٦، وقد ألّف مسرحيات ذات طابع فلسفى واجتماعى أهمها مسرحية "بيت الدمية" "Maison de poupée" سنة ١٨٧٩، ومسرحية "البطة البرية" سنة ١٨٨٤ (المترجم).

ليس من السهل أن نكتشف ذلك؛ لأن هذا المؤلف المخضرم يحتفظ بأكثر من سرّ، بل يبدو أن ما أراد أن يقوله قليل بالنسبة لما تعين عليه أن يقوله. لقد أعطى الحرية لبعض قوى النفس التى لم تكن قط حرة، والتى ربما تكون قد امتلكته. يقول "سولنيس" متعجبًا "لهيلد" "Hilde": «ألا ترى.. ألا ترى! يوجد فيك سحر كما يوجد فىّ أنا، وهذا السحر هو الذى يجعل القوى الخارجية تتحرك، ويجب أن نستجيب لها. وسواء أردنا أم لم نرد يجب أن نفعل ذلك».

ويوجد فيهما سحر كما يوجد فينا، وأرى أن "هيلد" و"سولنيس" يعتبران هما البطلان الأولان اللذان يشعران بأنهما يعيشان لحظة فى مجال النفس، ويحسان بأن هذه الحياة الرئيسية التى اكتشافها فيهما - بعيداً عن الحياة العادية - تخيفهم. ذلك لأن "هيلد" و"سولنيس" نفسان شاهدتا وصنعهما فى الحياة الحقيقية. وتوجد أكثر من طريقة نعرف بها الإنسان، وسأضرب مثلاً باثنين أو ثلاثة أراهم تقريبًا فى كل الأيام. ومن المحتمل أننى لا أتبين لوقت طويل حركاتهم، وعاداتهم الخارجية أو الداخلية، وطريقتهم فى الإحساس والتصرف والتفكير، لكن بكل الود الكبير، تنشأ لحظة غامضة نلمح فيها، إذا صح القول، الوضع الحقيقى لصديقنا بالنسبة للمجهول الذى يحيط بنا، والموقف من القدر إزاء هذا الوضع. وانطلاقًا من هذه اللحظة يكون هذا الصديق صديقا حقيقيا لنا. وقد رأينا لمرّة واحدة غير متكررة، الشكل الذى تسير فيه الأحداث إزاءه، ونحن نعرف أن هذا الصديق فعل ما فى وسعه، كى يقبع فى منزله ويظل ثابتًا غير متحرك بقدر إمكانه، خشية أن يحرك شيئًا ما فى مستودعات المستقبل - إلا أن حذره سيكونُ بلا طائل - كما أن الأحداث المتعددة التى ستجرى له ستكشف عنه فى أى مكان يختبئ فيه وستقرع بابه مرات متعاقبة.

ومن جهة أخرى، فإننا لا نجهل أن هذا الصديق سيخرج بلا جدوى بحثًا عن كل المغامرات، وسيعود منها خاوى الوفاض. ويبدو أنه قد نشأ علم معصوم من الخطأ - دون سبب - فى نفسنا فى اليوم الذى كانت فيه عيوننا مفتوحة بهذا الشكل، ونحن متأكدون أن أى حدث يمكن أن يجرى ويكون فى متناول يد أحد الأشخاص لا يمكن أن يحدث.

ومن هذه اللحظة، ساد قسم خاص من النفس على صداقة أكثر الكائنات ذكاء، بل وغموضًا، ويوجد نوع من تغيير الحياة، وعندما نقابل بالصدفة واحدًا من أولئك الذين نعرفهم في الوقت الذى نتحدث فيه عن الجليد أو عن النساء المارّات أمامنا، ينشأ فى كل منّا شىء يحيّى ذاته، ويتفحص نفسه، ويتساءل دون أن يعلم، ويهتم بالأوضاع ويتكلم عن الأحداث التى لا يمكننا فهمها.

وأظن أن "هيلد" و"سولنيس" يوجدان فى هذه الحالة ويريان نفسيهما بهذه الكيفية، ولا تشبه كلماتهما فى شىء ما سمعناه حتى الآن، لأن المؤلف حاول أن يجمع، فى العبارات نفسها، الحوار الداخلى والخارجى معًا.

وتسود فى تلك المسرحية السّرنمية شىء ما لا أعرفه من القوى الجديدة، وكل ما يقال فيها يُخفى ويكشف فى الوقت نفسه عن مصادر الحياة المجهولة. وإذا كنّا - فى بعض اللحظات - نشعر بالدهشة، فلا ينبغى أن يغيب عنا أن نفسنا تكون غالبًا - فى نظر أعيننا المسكينة - قوة مجنونة جدًا، كما أنه توجد فى الإنسان مواضع كثيرة أكثر خصوبة وعمقًا وأهمية من تلك التى توجد فى العقل أو الذكاء.

الفصل العاشر

"النـــجــم"

يمكن أن تقول إنه – من قرن إلى قرن – تجول أحد الشعراء التراجيديين فى متاهات القدر ومصباح الشعر فى يده. وحدد الشعراء بهذه الطريقة – كل حسب قوة سعته – ذات السنوات الإنسانية؛ وبذلك صنعوا التاريخ الربانى. وفيهم وحدهم يمكن أن نتابع التنوعات التى لا حصر لها للقوة الأعظم التى لا تتغير، ومن المهم أن نتبعهم؛ لأن أكثر نفوس الشعوب صفاء قد توجد فى أعماق الفكرة التى لديهم عن هذه القوة. ولم تمت هذه الفكرة بالكامل قط، لكن توجد لحظات تتحرك فيها بصعوبة، ونلاحظ عندئذ أن الحياة ليست شديدة الصلابة ولا شديدة العمق. ولم تُعبد هذه القوة بلا منازع إلا مرة واحدة؛ وكانت تُشكل – حتى بالنسبة للآلهة – سرًا مخيفًا. ومن الغريب أن نلاحظ أن العصر الذى كانت فيه الألوهية بلا وجه؛ وبدا أكثر العصور إفزاعًا وأكثرها غموضًا غير مفهوم، كان أجمل عصور الإنسانية، وكان أكثر الشعوب سعادة هو الشعب الذى صور لنفسه القدر على أفظع شكل.

ويبدو أن هناك قوة سرّية فى هذه الفكرة، أو أن هذه الفكرة تعتبر علامة على وجود قوة ما. فهل يكبر الإنسان بقدر ما يتعرف على عظمة المجهول الذى يسيطر عليه؛ وأين هو هذا المجهول الذى يكبر بقدر ما يكبر الإنسان؟ قد يقال اليوم إن فكرة القدر تستيقظ. ألا يكون من غير المفيد ألا نذهب للبحث عن هذه الفكرة، لكن أين نجدها؟ ألا يعتبر الذهاب للبحث عن القدر بمثابة الذهاب للبحث عن الأحزان الإنسانية؟

لا يوجد قدر للفرح، ولا يوجد نجم للسعادة. والنجم الذى نسميه بهذا الاسم هو نجم يتحلى بالصبر. ومن جهة أخرى فإنه من المهم أن نخرج أحيانًا للبحث عن أحزاننا حتى نعرفها ونعجب بها، فى الوقت الذى لا يبلغ فيه القسم الأكبر من قدرنا منتهاه.

وتتمثل أفضل الطرائق فى الخروج للبحث عن الذات؛ لأننا يمكن أن نقول إن قيمتنا تساوى قدر ما تساوى أوجه قلقنـا واكتئـابنا، وبقـدر ما تتقدم يصبح هذا القـلق وهذا الاكتئاب أكثر عمقًا وأكثر نبلاً وأكثر جمالاً. ويعتبر مارك آوريل **Marc-Aurèle** أفضل إنسان يُعجب الناس به، لأنه فهم أكثر من غيره ما وضعته نفسنا فى الابتسامة البسيطة المستسلمة فى أعماقنا.

والشىء نفسه بالنسبة لأحزان الإنسانية. وهذه الأحزان تتبع طريقًا يتشابه مع طريق أحزاننا، لكنه أكثر طولاً وأكثر أمنًا، وسيؤدى إلى أوطان لا يعرفون إلا من وصلوا متأخرين. ويبدأ هذا الطريق من الألم الجسمانى بعد أن مرّ - عن طريق الخوف بالألهة - وهو يتوقف اليوم حول حفرة جديدة لم يسبر غورها من هم أفضل منا.

وكل قرن يحب ألمًا آخر؛ لأن كل قرن يرى قدرًا آخر، ومن المؤكد أننا لم نعد نهتم - كما كان الحال فى الماضى - بالمصائب الناتجة عن انفعالاتنا، كما أن أكثر أعمال الماضى التراجيدية تتصف بحزن أقل من أحزاننا اليوم. وهذه الأعمال لا تصل إلينا إلا بطريقة غير مباشرة؛ لأن أفكارنا والنّبل الجديد الذى اكتسبه فينا ألم الحياة يضيف إلى الأحداث البسيطة الكراهية أو الحب اللذين يتجليان أمامنا.

ويبدو - فى بعض اللحظات - أننا على شفا تشاؤم جديد غامض ربما يكون أكثر شفافية. وأقسى الحكماء مثل "شوبنهاور"، و"كارليل" والروس والاسكنديناڤيون و"إيمرسون" المتفائل الطيب هو الآخر؛ (لأنه ليس ثمة شىء أكثر إحباطًا من رجل متفائل بمحض إرادته) قد ذهبوا دون أن يفسروا اكتئابنا، ونحن نشعر أنه - تحت كل الأسباب التى حاولوا ذكرها لنا - توجد أسباب أخرى أكثر عمقًا لم يتمكنوا من اكتشافها، ويمكن لحزن الإنسان الذى كان يبدو، منذ أن جاءوا، جميلاً، أن يتخذ شكل الحزن

النبيل إلى أقصى مدى إلى أن يقول كائن عبقرى الكلمة الأخيرة عن الألم الذى ربما سيطهرنا بالكامل.

وانتظاراً لذلك فنحن نوجد بين أيدى قوى غريبة، ونكاد أن نشتبه فى نواياها. وفى زمن كتّاب التراجيديا العظام فى العصر الجديد، وفى زمن "شكسبير" و"راسين" ومن بعدهما نعتقد أن جميع الشرور تأتى جميعًا من الانفعالات القوية المختلفة فى قلبنا، ولا تتأرجح الكارثة بين عالمين. إنها تجىء إلى هنا كى تذهب إلى هناك، ونحن نعلم من أين تخرج، والإنسان دائمًا هو السيد. وفى زمن اليونانيين، كان الأمر أقل من ذلك بكثير، وكان القدر يسيطر على الأعالى، وكان لا يمكن الوصول إلى هذا القدر ولم يكن أحد يجرؤ على سؤاله، أما اليوم فإننا نستجوبه، وربما تكون هذه هى العلامة الكبرى التى تميز المسرح الجديد. فلم نعد نتوقف أمام آثار التعاسة، لكن أمام التعاسة نفسها، وأصبحنا نريد أن نعرف جوهر هذه التعاسة وقوانينها. وأهم ما كان يشغل - دون وعى - أوائل كتّاب التراجيديا ويكوّن الشبح الرسمى الذى يحيط - دون أن يدروا - بالحركات المجردة والعنيفة للموت الخارجى، طبيعة هذه التعاسة نفسها، التى صارت تكون بدورها النقطة المركزية لأحداث المسرحيات الدرامية، والبؤرة الضوئية الغامضة التى تدور حولها نفوس الرجال والنساء. وإذا كانت قد اتخذت خطوة ناحية الغموض فلكى يتم النظر من الأمام إلى أحداث الحياة المرعبة.

وقد يكون من المفيد أن نبحث - تحت أى زاوية - تصور آخر كتّاب التراجيديا عندنا للتعاسة التى تعتبر قلب كل القصائد الدرامية. إنهم يرونها من جهة أكثر قربًا مما كان اليونانيون يرونها، ويدخلون إليها أكثر فى الظلمات الخصبة فى دائرتها الداخلية، وربما تكون هناك آلهة مماثلة للتعاسة، لكن هؤلاء الكتّاب يجهلونها فيما بينهم. من أين تأتى التعاسة وإلى أين تسير، ولماذا تنزل؟ لقد كان اليونانيون يطلبون هذه التعاسة بالكاد. هل تعتبر التعاسة منقوشة فينا أو تنشأ فى الوقت نفسه الذى نولد فيه نحن؟

هل هو الشقاء الذى يتقدم لملاقاتنا أم أن هناك أصواتًا تناديه من أعماق وجودنا وتكون على اتصال به؟ من المتعين أن تكون لدينا القدرة على أن نلاحظ من أعالى عالم آخر تصرفات الإنسان الذى يحدث له ألم كبير، وما هذا الإنسان الذى يعمل دون أن يعرف كيف يتصور الألم الذى سيكون محور حياته؟

وللفلاحين الاسكتلنديون كلمة يمكن أن تطبق على كل ما هو موجود، وفى أساطيرهم يطلقون كلمة "فيه" **Fey** على حالة الإنسان الذى يقوده شعور داخلى لا يمكن مقاومته، رغم كل جهوده وكل النصائح وكل ما يستنجد به، إلى كارثة لا يمكن تجنبها. وهكذا كان "جاك الأول" أى جاك دى كاترين دوجلاس فيه **fey** عندما ذهب - رغم التنبؤات الخطيرة للأرض والنار والسماء - ليقضى أيام أعياد الميلاد فى قصر "بيرث" **perth** المظلم، حيث كان قاتله الخائن "روبرت جرايم" **Robert Graeme**. ومن منا لم يشعر أن القدر يسيطر عليه على هذا النحو عندما يتذكر ظروف الشقاء الفاصلة فى حياته؟ ومن المفهوم أنى لا أتحدث هنا إلا عن التعاسة النشطة الفعالة، أى التعاسة التى كان يمكن تجنبها، لأن هناك أنواعًا من التعاسة السلبية، مثل موت كائن عزيز علينا، تواجهنا ولا نستطيع لها دفعًا وليس لنا عليها أى تأثير.

تذكر يومًا من أقدار حياتك، فمن منّا تم إخطاره بذلك اليوم رغم أنه يبدو لنا اليوم أن القدر كله كان يمكن أن يتغير، بواسطة خطوة واحدة لم نقم بها، أو عن طريق باب كان لا يتعين فتحه، أو يد كان لا يجب أن نرفعها، ومن منا لم يصارع بلا جدوى وبلا قوة وبلا أمل - وهو على قمة جدران الهوّة - قوة لا يراها كانت تبدو بلا قوة؟

وقد كان يتعين أن تكون لفحة هذا الباب الذى فتحته ذات مساء قاضية على سعادتى إلى الأبد، كما ينطفئ المصباح الضعيف. والآن عندما أفكر فى هذا الأمر لا أستطيع أن أقول لنفسى أننى لم أعرفه... ومع ذلك لم يكن هناك شىء مهم يدعونى للوقوف أمام عتبة الباب، فقد كان بوسعى أن أتجاوزها وأنا أهز أكتافى، ولم يكن هناك سبب إنسانى واحد يجبرنى على أن أدق على مصراع الباب... ولم يكن يوجد أى سبب إنسانى؛ لم يكن هناك شىء سوى القدر.

ولا يزال ذلك يشبه قدر "أوديب"، وإن كان يعتبر شيئًا آخر، ويمكننا القول بأن هذه القدرية التى تم ملاحظتها كانت توجد منذ البداية، وهناك قوى غامضة تحكم نفوسنا بالاتفاق، على ما يبدو، مع المخاطر. ونحن نحمل فى داخلنا أعداء يعرفون ما يفعلون، وما يتعين عليهم أن يفعلوه بنا، وعندما يقودوننا إلى الحدث، ينبئوننا بذلك بكلمات نصف مفهومة، وقليلة حتى يوقفونا على الطريق؛ لكن فى هذه الكلمات ما يكفى كى يجعلنا نأسف على فوات الوقت، الذى كان ينبغى فيه أن نستمع بانتباه أفضل إلى نصائحهم الساخرة غير الواضحة. إلى أين تريد هذه القوى التى ترغب فى إهلاكنا أن تذهب بنا، حيث إنها لا تموت معنا ولا تعيش إلا فى داخلنا؟ ما هذا الشىء الذى يحرك كل مؤامرات الكون الذى يتغذى من دمنا؟ ويدخل الإنسان الذى دقت ساعة تعاسته فى دوامة لا يمكن ملاحظتها؛ ومنذ سنوات تخلط هذه القوى الأحداث المتعددة التى ينبغى أن تؤدى إلى الدقيقة اللازمة وإلى النقطة الحاسمة التى تنتظر فيها الدموع. تذكر كل جهودك وكل حدسك. تذكر النجدات غير المفيدة. تذكر أيضًا اللحظات الطيبة الحانية، التى حاولت أن تسد أمامك الطريق وأنت تحاول صدّها، كما تصد المتسولين الذين يضايقونك. كانت هذه اللحظات بمثابة شقيقات خجولات كن يردن إنقاذك، وابتعدت دون أن تقول شيئًا؛ لأن هذه اللحظات كانت من الضعف والقصر بحيث تستطيع الصمود أمام أشياء تقرر حدوثها من قبل. والله يعلم أين.

وعقب حدوث التعاسة نشعر بإحساس غريب بأننا كنا نستجيب لقانون أزلى. ولست أعلم ما المواساة الغامضة، التى تكافئنا على استجابتنا فى أثناء أعظم الآلم؟ إننا لن نكون أبدًا سوى أبناء حميميين لليوم التالى لوقوع كارثة لا يمكن إصلاحها. ويبدو عندئذ أننا قد استعدنا أنفسنا واسترجعنا جزءًا ضروريًا لا نعرفه من وجودنا، يحدث شىء من الهدوء الفريد. ومنذ أيام - ودون أن نعرف - كانت القوى المتمردة فى ذاتنا تصارع بضراوة على حافة الهاوية، فى الوقت الذى كان باستطاعتنا فيه أن نبتسم فى الوجوه وأمام الأزهار. والآن ونحن فى العمق فإن كل شىء يتنفس بحرية.

وهكذا فـإن هذه القـوى تقـاتل دون هوادة فى كل نفس من نفـوسنا، ونحن نرى أحيانًا شبح هذه المعـارك التى لا يمكن لإرادتنا أن تتدخل فيهـا، دون أن نلتفت إليها لأننا لا نفتح عيوننا إلا للأشـيـاء عديمة الأهمية. وإذا كنت فى حضـرة أصدقـاء، فقد يحدث وسط الكلمـات والقهقهات من الضحك أمر ليس من شأن هذا العالم العادى نراه على وجه أحدهم، ويسود الصمت فجأة: وسينظر الجميع – دون أن يدروا – إلى الفضاء للحظة بعيون نفسهم. وبعد ذلك تعود الابتسامات والكلمـات التى كانت قد اختفت مثل الضفادع المذعورة فى بحيرة كبيرة، وهى أكثر عنفًا إلى الظهور من جديد، لكن الشىء الذى لا نراه، هنا كما فى أى مكان آخر، يدرك مداره، وشىء ما يدرك أن الصراع قد انتهى، وأن نجما سيرتفع أو سيسقط، وأن قدرا قد تحدد منذ قليل.

وربما يكون هذا القدر قد تحدد؛ ومن يعلم إذا لم يكن هذا الصراع مجرد خيال! وإذا كنت أدفع باب المنزل اليوم، حيث يجب أن أواجه أول ابتسامات الحزن الذى لم يعد ينتهى، فإننى أقوم بمثل هذه الأشياء منذ وقت أطول ممًا نعتقده.

ما جدوى أن يزرع المرء ذاتًا ليس لدينا عليهـا أى نفـوذ؟ إنه نجمنا الذى ينبغى أن نلاحظه، فهو إما سيئ أو حسن، شاحب أو قوى لا يمكن لكل قوى البحر أن تغير منه شيئًا. ويمكن للبعض الذين يثقون فيه أن يلعبوا معه، كما يلعبون بكرة من الزجاج، فهم يدفعونها ويجازفون بها حيث يريدون، لكن هذه الكرة تعود إلى أيديهم بسلام، فهم يعلمون جيداً أنها لا يمكن أن تتكسر، لكن هناك نجومًا كثيرة أخرى لا يمكن أن ترفع نظرتها إليهم دون أن تنفصل عن السماء وتسقط كالتراب بين أرجلهم.

ومن الخطورة أن نفكر فى هذا الأمر، لأن ذلك يعتبر علامة على أن النجم على وشك أن ينطفئ.

ونحن نوجد هنا فى هاويات الليل وننتظر ما يمكن أن يحدث فيه، وليس الأمر هنا مسألة إرادة، فنحن على بعد ألف فرسخ من النجم فى منطقة تكون فيها الإرادة نفسها أكبر ثمرة ناضجة للقدر، ولا ينبغى أن نشتكى من ذلك؛ لأننا نعرف شيئًا ما من قبل واكتشفنا بعض عادات الصدفة. إننا ننتظر مثل صياد العصافير، الذى يراقب

عادات العصافير المهاجرة. وعندما يحدث حادث فى الأفق، فإننا لا نجهل أن هذا الحادث لن يكون منفرداً وأن غيره من الأحداث ستـأتى زرافات إلى المكان نفسه. ولقد تعلمنا بغموض، أن بعض الأفكار وبعض النفوس تجتذب هذه الأحداث فيما يبدو، وأنه توجد كائنات تغير مسارها، تماماً كما يوجد غيرها وتستطيع أن تدفع بهذه الأحداث إلى جميع أنحاء العالم.

ونعلم بصفة خاصة أن بعض الأفكار خطيرة جداً، وأنه يكفى أن نعتقد للحظة أننا فى مأمن حتى تأتينا الصاعقة، وأن السعادة تشكل فراغًا لا تتوانى الدموع عن أن تنهمر فيه. وفى نهاية بعض الوقت نكتشف أيضًا ما تفضله هذه النجوم. ونلاحظ على الفور أننا نخطو بعض الخطوات فى طريق الحياة بجانب أحد أشقائنا. ولن تكون عادات الصدفة متماثلة بينما تحدث، بانتظام، مع هذا الآخر أحداث ذات طبيعة لا تتغير فى مواجهة وجودنا. ونحن نشعر أن هناك كائنات تحتمى بالمجهول وأخرى تدخل فى مجال الخطر، وهناك من ينامون، وهناك من يوقظون المستقبل. ونحن نشتبه أيضًا فى أن الأشياء، تولد ضعيفة فى البداية ثم تستمد منا قوتها، وأنه فى كل مخاطرة توجد دقيقة قصيرة تنبئنا فيها غريزتنا بأننا ما زلنا سادة القدر. وأخيراً يتجرأ البعض على أن يؤكدوا لنا أنه يمكننا أن نتعلم كيف نكون سعداء، وكلما كنا أفضل، سنقابل أناسًا أفضل، وأن الكائن الطيب يجتذب بشدة أحداثًا طيبة مثله، وأنه مع النفس الجميلة تتحول أكثر الصُّدفات حزنًا إلى جمال.

ومن ذا الذى لا يشعر بأن الطيبة تشير إلى الطيبة، وأن الشىء نفسه يحدث مع من نخلص لهم، ومع من نخونهم؟ وإذا كان الألم نفسه يدق على بابين متلاصقين فهل سيتفاعل هذا الألم بالكيفية نفسها مع دار العدالة ودار الظلم، وإذا كنت طاهراً ألا تكون أوجه تعاستك طاهرة؟ ألا يسيطر المرء على المستقبل عندما يعرف كيف يحوّل الماضى إلى بضع ابتسامات حزينة نوعًا ما؟ ألا يبدو أننا نستطيع أن نؤخر حدوث شىء ما حتى ما لا يمكن تحاشيه؟ ألا تنام الأخطار ثم تحدث حركة مفاجئة جداً تجعلها تستيقظ فى الأفق، وهل كان سيحدث هذا الشقاء اليوم إذا لم تكن هذه الأفكار المجتمعة قد أحدثت

ضجة كبيرة فى نفسك هذا الصباح؟ هل ذلك هو كل ما استطاعت حكمتنا أن تجده فى الظلمات؟ وإذن فمن يجرؤ على أن يقول إنه توجد فى هذه المناطق حقائق حازمة؟ فى الانتظار يجب أن نعرف كيف نبتسم وكيف نبكى فى صمت على نوع من الطيبة بسيط جداً.

وفوق كل هذه الأمور، يرتفع رويداً رويداً الوجه غير الكامل للقدر اليوم، وقد سبق أن انحسر جزء بسيط من الغطاء الذى كان يغطيه، وتعرفنا من جهة فى الجزء المكشوف - دون بعض القلق - على قوة أولئك الذين لم يعيشوا بعد، وعلى قدرة الأموات من جهة أخرى. وفى الحقيقة لا يوجد سوى ابتعاد جديد عن المجهول. لقد قمنا بتكبير يد القدر الباردة، وها نحن نجد أن أيدى أبنائنا، الذين لم يولدوا بعد تنضم فى ظلامها إلى أيدى أجدادنا. لقد كان هناك عمل اعتقدنا أنه ملجأ لنا من جميع الحريات، وظل الحب هو أكبر ملاذ لكل هؤلاء الذين كانوا يشعرون بشدة بقيود الحياة وفى هذا على الأقل كنا نقول لبعضنا، فى عزلة هذا الزمن السرى، إن أحداً لن يدخل معنا، لكن هنا يمكننا أن نتنفس للحظة، هنا تتسيد نفسنا أخيراً؛ لأنها اختارت بحرية فى مركز الحرية نفسها، لكن الآن وصل بنا الحال إلى أن نقول إننا لا نحب لحسابنا. لقد جاء من يقول لنا إنه - فى معبد الحب نفسه - لم نخضع إلا لأوامر ثابتة لمجموعة غير مرئية. قالوا لنا إننا نكون على بعد ألف قرن من أنفسنا عندما نختار حبيبنا، وإن أول قبلة للخطيب ليست سوى خاتم تفرضه آلاف الأيدى، التى تطلب المجىء إلى الوجود، على فم الأم التى ترغب فيها. ومن جهة أخرى، فإننا نعرف حالياً أن عاداتنا تجد نفسها حول منازلنا وليس حول كنائسنا. من الآن فصاعداً، ولا توجد حركة أو فكرة أو خطيئة أو دمعة أو ذرة من وعى مكتسب يضيع فى أعماق الأرض؛ وأن أتفه أعمال أجدادنا ترتفع، ليس فى قبورهم حيث لم يعودوا يتحركون، لكن فى أعماقنا حيث يعيشون دائماً.

وهكذا فإن الماضى والحاضر هما اللذان يوجهاننا، أما الحاضر الذى يُكون وجودنا، فإنه يسقط فى أعماق البحر كما تسقط جزيرة صغيرة ينهشها بلا هوادة محيطان ثائران. وتختلط فى نفسنا الموروث والإرادة والقدر، لكن رغم كل شىء، وفوق كل شىء،

فإن النجم الصامت هو الذى يحكم، وهناك ملصقات مؤقتة توضع على الفازات الوحشية التى تحتوى على ما لا يمكن رؤيته. إن الكلمات لا تقول شيئًا تقريبًا مما ينبغى قوله. وليس الموروث أو القدر نفسه إلا شعاعًا ضالاً من هذا النجم فى الليل الغامض. ولا يزال كل واحد يملك الحق فى أن يكون أكثر غموضًا. وقد قال واحد من أكبر حكماء هذا العصر: «إننا نسمى قدراً كل ما يحددنا»، ولذلك فإن علينا أن نعترف بجميل كل الذين يتحسسون بارتعاش بجانب هذه الحدود. وأضاف هذا الحكيم قائلاً: «إذا كنا عنيفين وبرابرة؛ فإن القدر يتخذ شكلاً عنيفًا وبربريًا، وعندما نُهذب من سلوكنا فإن صدماتنا ستكون أيضًا مهذبة، وإذا ارتفعنا إلى ثقافة روحية فإن المعادلة ستتخذ شكلاً روحانيًا»، وربما يكون من الحقيقى أن نفسنا عندما ترتفع، تُطهّر القدر، رغم أنه من الحقيقى أيضًا أن تقول إن الأحزان نفسها، التى تهددنا تهدد أيضًا الهمجيّين المتوحشين، لكن لدينا أحزانًا أخرى لا يراها هؤلاء المتوحشون، كما أن العقل لا يسمو إلا لكى يكتشف أحزانًا فى كل الآفاق، «لأن ما نسميه قدراً هو كل ما يحددونا». لنحاول أن نقول إن القدر ليس شديد الضيق.

ومن الجميل أن نكثر من كمية أحزانه، بما أن ذلك يعنى توسيع وعيه الذى يُعتبر المكان الوحيد الذى نشعر أننا نعيش فيه، وذلك أيضًا هو الوسيلة الوحيدة التى بها يملأ واجبه الأعلى نحو العوالم الأخرى، نظراً لأنه يتعين علينا وحدنا تقريبًا أن نزيد من وعينا بالأرض.

الفصل الحادى عشر

"الطيبة الخفيّة"

قال لى هذا الحكيم الذى قابلته ذات مساء على شاطئ المحيط، وكنت أسمعه بصعوبة، إن الطيبة شيء لا ندركه، ولا يظهر أن أحداً يعتمد عليها. ومع ذلك، فإننى أعتقد أنها إحدى القوى التى تحمى وجود الكائنات. والآلهة التى وُلدنا منها تبدو فينا بـألف طريقة مختلفة، لكن هذه الطيبة الخفية التى لم نلحظها، والتى لم يتحدث عنها أحد بشكل مباشر بما فيه الكفاية، قد تعتبر علامة على أنقى حياة أبدية. ولا يعلم أحد من أين تجيء. إن هذه الطيبة تبتسم هنا ببساطة على عتبة نفوسنا؛ وسيقوم هؤلاء - الذين تبتسم الطيبة فى أعمق أعماقهم مراراً وتكراراً - بالعمل على معاناتنا ليلاً ونهاراً كلما أرادوا دون أن يكون بوسعنا إلا أن نحبهم بعد ذلك.

وليست الطيبة من هذا العالم، ومع ذلك فهى تختلط بمعظم تصرفاتنا، بل إنها لا تكلف نفسها مشقة أن تظهر فى شكل نظرة أو دمعة، وتختفى - على العكس - لأسباب لا نستطيع التكهن بها. وقد يُقال إنها تخشى استخدام قوتها، وهى تعرف أن حركاتها غير الإرادية ستنشأ عنها، وحولها أمور خالدة. لماذا إذن نخشى أن نستنفد السماء التى توجد فينا؟ إننا لا نجرؤ على الحركة وفقًا لما يريده الإله الذى يحركنا. إننا نخشى ما لا يمكن تفسيره بحركة أو بكلمة ونحن نغلق الأعين عن كل ما نفعله رغمًا عنا فى الإمبراطورية التى تكون فيها التفسيرات غير ضرورية، ومن أين يأتى إذن هذا الوهن لكل ما هو ربانى عند الناس؟ وقد يُقال حقيقة إنه كلما تقترب حركة النفس من الربانية، تزيد عنايتنا بإخفائها عن أنظار أشقائنا، ألا يكون الإنسان شيئًا آخر غير إله

ربما يشعر بالخوف؟ أم أنه من المحرم علينا أن نخون ونكشف هذه القوى العليا؟ إن كل ما لا ينتسب إلى هذا العالم المرئى بشكل كبير جداً، يشبه خضوع البنت المعاقة التى لا تستدعيها أمها عندما يدخل الغرباء إلى المنزل. ولهذا فإن طيبتنا الخفية لم تتجاوز - قط حتى الآن - الأبواب الصافية لنفسنا، وهى تعيش فينا كالسجين الذى يحرم عليه أن يتجاوز القضبان، ومن ناحية أخرى، لا يجب على الطيبة أن تقترب منها، إذ يكفى أنها موجودة هناك، وهى تعرف كيف تختبئ بمجرد أن ترفع رأسها، وبمجرد أن تتخلص من قضيب من قيودها، وبمجرد أن تفتح يدها يُضاء السجن، وتنفتح المنافذ تحت ضغط الأضواء الداخلية، تنشأ فجأة هوّة مملوءة بملائكة متحركين بين الكلمات وبين الكائنات. وخشعت الأصوات وتتحول الأنظار للحظة، وتتعانق نفسان وهما تبكيان على العتبة.

وليس ذلك شيئاً يأتى من الأرض، وأى وصف لن يؤدى إلى نتيجة، ويتعين أن يكون لدى من يريدون أن يفهمونى النقطة الحساسة نفسها فى ذواتهم. وإذا كنت لم تشعر قط فى الحياة بقوة الطيبة الخفية، فلا تذهب إلى أبعد من ذلك؛ فلا فائدة، لكن هل يوجد حقيقة من لم يشعروا بهذه القوة؛ وألم يكن لدى أسوأ الناس فينا طيبة خفية قط؟ لا أعرف، فهناك كثير من الكائنات فى هذا العالم لا يفكرون فى شىء آخر غير إحباط كل ما هو ربانى فى نفسهم. ومع ذلك تكفى لحظة واحدة لالتقاط الأنفاس، كى يظهر ما هو ربانى، كما أن أكبر الأشرار لا يكونون دائماً على حذر، ولهذا السبب يوجد - بلا شك - كثير من الأشرار بهم طيبة لا يراها الآخرون، فى الوقت الذى يوجد فيه كثير من الحكماء وكثير من القديسين بلا طيبة خفيّة.

ويضيف هذا الحكيم قائلاً: لقد سببت المعاناة لآخرين أكثر من مرة، كما يسببها أى كائن حوله، ولقد كنت السبب فى هذه المعاناة؛ لأننا فى عالم تتماسك أطرافه بخيوط لا نراها، وفى عالم لا يوجد فيه أحد وحيداً، كما أن أرق حركة من الطيبة أو من الحب تجرح - فى الغالب - كثيراً من الأمور البريئة بجانبنا. لقد سببت المعاناة أيضاً؛ لأن أفضل الناس وأرقهم يحتاجون إلى البحث عن جزء لا أعرفه من أنفسهم فى ألم الآخرين. وهناك، حقيقة، حبوب لا تنبت فى نفسنا إلا تحت وابل من الدموع التى تتوزع

فى كل الأنحاء بسببنا، ومع ذلك، فإن هذه الحبوب تنتج أزهاراً جميلة، وثماراً طيبة. ماذا تريدون؟ إنه قانون لم نصنعه نحن، ولست أعلم ما إذا كنت أتجرأ على أن أحب إنسانًا لم يجعل أحداً يبكى. وفى معظم الأحيان، نجد أن من يحبون حبًا كبيراً يتسببون فى معاناة أكبر، لأننا لا نعلم ماهية هذه القسوة الرقيقة الخجولة، التى تعتبر الشقيقة القلقة للحب. ويبحث الحب فى كل مكان عن براهين له؛ وألا يجب أن نميل للعثور على هذه البراهين أولاً فى دموع المحبوبة؟

بل إنه لا يمكن للموت أن يكون كافيًا لطمئنة العاشق إذا لم تكن لديه الجرأة على الاستماع إلى مقتضيات الحب؛ لأن لحظة الموت تبدو قصيرة جداً بالنسبة لقسوة الحب الذاتية، وبعيداً عن الموت، لا يزال يوجد مكان لبحر من الشكوك، والذين يموتون معاً، ربما لا يموتون بغير قلق، ويتعين هنا وجود دموع طويلة تنذرف ببطء، والألم هو أول غذاء للحب، وكل حب لم يتم تغذيته بقليل من الألم الصافى يموت كما يموت طفل حديث الولادة يراد تغذيته، كما يغذى إنسان كبير. هل تودون أن تحبوا الكيفية نفسها التى تحقق الابتسام دائمًا، أو التى تجعلكم تبكون أحيانًا؟

للأسف، يجب أن يبكى الحب فى أحيان كثيرة. وفى اللحظة نفسها، التى يتزايد فيها البكاء، يتزايد فيها الطَّرْق على قيود الحب التى تنغمس فى الماء من أجل الحياة.

ويضيف الحكيم قائلاً: لقد تسببت فى المعاناة على هذا النحو؛ لأننى كنت أحب. وتسببت فى المعاناة أيضًا؛ لأننى لم أعد أحب، لكن ما الفرق بين هذين النوعين من الآلام! هنا يبدو أن دموع الحب التى نشعر بها، تعلم فعلاً، وفى قرارة ذاتها، أنها تروى فى نفسينا المتحدثتين شيئًا لا يمكن وصفه، وهنا تعرف هذه الدموع المسكينة من جهتها، أنها تسقط وحدها على صحراء، لكن فى هذه اللحظات التى تصغى فيها النفس حقيقة أو بالأحرى كل نفس، تعرفت على قدرة الطيبة الخفية، التى تعطى لدموع الحب التعسة - هذا الحب الذى يموت - الإيحاءات الربانية للحب الذى يولد. ألم تتعرض قط لإحدى تلك الأمسيات الحزينة، حيث لا تستطيع القبلات المحبطة أن تبتسم،

وحيث تشعر النفس أخيراً، بأنه تم خداعها؟ لم تعد الكلمات تدوى إلا بمعاناة كبيرة في هذا الهواء البارد للافتراق النهائي. إنك ستبتعد إلى الأبد، وستمتد الأيدي - التي لا روح لها - نحو وداع بلا عودة عندما تقوم النفس فجأة بحركة حول نفسها لا يمكن إدراكها، وتفوق النفس المجاورة لها في اللحظة نفسها فوق أعالي الكائن الإنساني، ويتولد شيء أكثر سمواً من حب العشاق المتعبين، وتبتعد الأجساد، لكن النفوس لن تنسى - بعد الآن - أنها كانت قد نظرت إلى بعضها بعضاً لبرهة من فوق جبال لم يسبق أن رأتها على الإطلاق، وأنها - في غمضة عين - كانت لديها طيبة لم تكن تعرفها بعد.

ما إذن هذه الحركة الغامضة التي لم أتحدث عنها إلا بمناسبة الحب، والتي يمكن أن تحدث في أبسط ظروف الحياة؟ هل أنا لا أعرف ما التضحية أو ما العناق الداخلي، أو ما الرغبة العميقة جداً التي تشعر بها نفس نحو أخرى، أو ما الإحساس الرقيق دائماً الذي ينشأ عن وجود حياة لا نراها تماثل حياتنا؟ هل يوجد كل ما هو رائع وحزين في قضية العيش وحدها؛ وهل مظهر الحياة واحد وغير مرئي، ومن هو ذلك الذي يسيطر على كل وجودنا في هذه اللحظات؟ إنني أجهله، لكن حينئذ يحس المرء حقيقة بأن هناك قوة مجهولة، وبأننا كنوز خاصة بإله ما يحب الجميع، وأنه لا تخفى عليه أية حركة، وأننا نوجد - في نهاية المطاف - في منطقة أشياء لا تكشف عن نفسها.

ومن الحقيقي، أنه من الميلاد إلى الممات لا نخرج مطلقًا من هذه المنطقة النهائية، لكننا نتجول في الإله وكأننا أناس مساكين منوّمين، أو مثل العميان الذين يبحثون دون جدوى عن المعبد الذي يوجدون داخله. إننا هناك، في الحياة، إنسان ضد إنسان، نفس ضد نفس، وتمضي الأيام والليالي تحت السلاح، ونحن لا نرى أنفسنا، ولا يلمس بعضنا بعضًا، ولا نرى أبدًا سوى دروع وخوذات ولا نلمس شيئًا غير الحديد والبرونز، لكن إذا حدث ظرف طارئ قادم من بساطة السماء وأسقط الأسلحة لبرهة، ألن توجد عندئذ دموع تحت الخوذة، وابتسامات طفل خلف الدرع، وألا نرى حقيقة أخرى؟

وما زال الحكيم يفكر، ثم تنهد بحزن أكبر قائلاً: لقد كنت أعتقد أننى قلت لكم ما سأقوله الآن، لقد كانت هناك امرأة جعلتها تتألم رغمًا عنى، لكنها باحت لى ذات مساء بالقوة الحاكمة لهذه الطيبة الخفية، وأكثر الناس انتباهاً ينشرون الألم حولهم دون أن يدروا بذلك، ولكى يكون المرء طيبًا، يجب أن يكون قد تألم لكن يتعين أن يكون قد جعل الآخرين يتألمون حتى يصير أفضل. وقد شعرت بذلك هذا المساء، وكنت أشعر أننى وصلت وحدى إلى المنطقة الحزينة للقبلات، حيث يبدو أننا نزور بالفعل أكواخ الفقراء، بينما كانت المحبوبة التى جاءت متأخرة لا تزال تبتسم فى ردهات القصور فى الأيام الأولى، والحب فى نظر الناس يموت بيننا مثل الطفل الذى انتابه داء لا نعرف من أين أتى، والذى لا يشفق عليه أحد. ولم نقل شيئًا لأنفسنا، بل إننى لا أستطيع أن أتذكر فيما كنت أفكر فى هذه اللحظة الخطيرة جداً؛ فى أشياء تافهة بالتأكيد. وقد حدث كل شيء فى ضوء أكثر شفافية ألف مرة وأكثر علواً، كما لو كانت كل قوى الشفقة والحب التى أسيطر عليها فى أفكارى وقلبى قد تدخلت عند مقابلتى لآخر وجه على ضوء مصباح مرتعش فى ركن من رصيف قفر، وتركنا بعضنا دون أن نقول شيئًا، لكن فهمنا فكرنا الذى لا يمكن التعبير عنه فى الوقت نفسه. ونحن نعلم الآن أن حبًا آخر قد نشأ ليس فى حاجة إلى كلام ولا اهتمامات صغيرة ولا للابتسامات مثل الحب العادى. ولم نر بعضنا بعد ذلك. وقد لا نتراءى قبل قرون «ومما لا شك فيه أنه يتعين أن ننسى أشياء كثيرة، ونتعلم أشياء أخرى من خلال العوالم التى سنمر عليها»، قبل أن نوجد فى حركة النفس نفسها التى حدثت فى ذلك المساء: ولدينا الوقت للانتظار.

وأيضًا، ومنذ هذا اليوم قمت بالترحيب، فى كل مكان، وفى أحلك الأوقات، بالحضور الطيب لهذه القوة العجيبة، ويكفى أن نراها بوضوح مرة واحدة حتى لا يمكننا أن نتحاشى وجهها، وستراها وهى تبتسم غالبًا فى التراجعات الأخيرة للكراهية، وحتى فى أعماق أقسى الدموع. ومع ذلك، فهى لا تظهر لعيون جسدنا، وعندما تبدو – بسبب عامل خارجى – تتغير طبيعتها، ولا نكون عندئذ فى الحقيقة التى تفهمها النفس، لكن نكون فى نوع من الكذب الذى يعرفه البشر، وليس لدى الطيبة والحب اللذين لا يتجاهلان بعضهما أى تأثير على النفوس؛ لأنهما خرجا من الممالك التى

يعيشان فيها؛ وما داما لا يريان فبإمكانهما! ترقيق القـدر نفسـه. ولقد عرفت رجلاً كان يقوم بجميع أعمال الطيبة والرحمة دون أن يصل إلى نفس واحدة؛ وعرفت آخرين كان يبدو أنهم يعيشون فى ظل الكذب والظلم دون أن يزحزحوا هذه النفوس نفسـها ودون أن تتولد منهم - للحظة واحدة - فكرة أنهم ليسوا طيبـين. وهناك ما هو أكثر من ذلك، فهؤلاء الذين لا يعرفونك والذين تنقل إليهم أعمالك فى مجال الطيبة والحب بكل بساطة، سيتشككون فى شىء ما إذا لم تكن طيبًا على غرار الطيبة الخفية، ولن يتيسر الوصول أبدًا إلى أعماق كيانهم، كما لو كان يوجد فى جهة ما مكان يوزن فيه كل شىء فى حضور الأرواح، أو كما لو كان يوجد هناك فى الجانب الآخر من الليل، خزان من اليقين يشرب منه القطيع الصامت للنفوس كل صباح.

وربما لا نعرف حتى الآن معنى كلمة «يحب»؛ إذ يحدث فى حياتنا أن نحب دون أن نعرف. وإذا كان هذا هو الحب فلن يكون الأمر مجرد شفقة أو استعداد للتضحية الداخلية بالنفس أو الرغبة فى المساعدة وإحداث السعادة؛ لكن الحب أكثر عمقًا ألف مرة من أحلى الكلمات الإنسانية، وأكثرها رشاقة وقوة ولا يمكن لكل ذلك أن يصل إلى الحب، وأحيانًا قد يقال إنه ذكرى خاطفة وإن كان يتغلغل بشدة إلى الوحدة البدائية الكبرى، ويوجد فى هذا الحب قوة لا يمكن لأى شىء أن يقاومها. ومن منّا، إذا تساءل - وسط أنوار غير طبيعية لا يمكن النظر إليها - لا يجد فى نفسه مرة أخرى ذكرى أعمال غريبة قامت بها قوى هذا الحب؟ من منّا لم يشعر فجأة وهو إلى جانب كائن غير مكترث، بأن شيئًا ما قد نشأ لا يعرف أى شخص كيف يسميه. هل كانت هى النفس أو الحياة التى تدور على نفسها مثل النائم الذى يستيقظ؟ أنا لا أعرف، ولا أنتم تعرفون، ولا أحد يتحدث عن ذلك رغم أنكم لا تفترقون كما لو كان لم يحدث شىء.

والحب بهذا الشكل، هو حب وفقًا للنفس؛ ولا توجد نفس لا تتجاوب مع هذا الحب؛ لأن النفس الإنسانية تعتبر مثل من يُدعى وهو جائع منذ قرون، ولا ينبغى أبدًا أن يُدعى مرتين إلى وليمة عرس.

وتتسكع كل نفوس إخواننا باستمرار حولنا، لتبحث عن قُبلة ولا تنتظر منا إلا إشارة، لكن كم من الموجودين تجرءوا على إعطاء مثل هذه الإشارة فى حياتهم! وسبب الألم الذى يحيط بوجودنا هو أننا كنا نعيش بمعزل عن نفسنا، وأننا كنا نخشى أقل حركاتنا. ولو كنا نسمح لها بأن تبتسم بوضوح فى ظل صمتها وضيائها لكنا عشنا حياة أبدية. ويكفى أن نتأمل ولو لبرهة ما تستطيع هذه النفس أن تفعله فى الدقائق النادرة التى لا نفكر فيها وفى تقييدها بوصفها مجنونة، مثل ما نفعل فى الحب، حيث نتركها أحيانًا لتقترب من أسوار الحياة الخارجية. ووفقًا للحقيقة الأولية، ألا يجب أن يشعر كل الموجودين أمامنا فى الحياة، بمثل ما تشعر به العاشقة أمام المعشوق؟

وتسبغ هذه الطيبة الخفية الربانية النبل بصفة نهائية على كل ما تلمسه دون أن تدرى بذلك، رغم أننى لا أتحدث عن هذه الطيبة إلا بوصفها علامة أكيدة وقريبة من نشاط نفسنا الذى لا يتوقف، وإلى هؤلاء الذين يشكون من أى موجود، يجب عليهم أن ينزلوا إلى أعماقهم ويتساءلوا عما إذا كانوا، فى أى وقت طيبين إزاء هذا الكائن.

وفيما يتعلق بى، لم أقابل قط أى شخص أشعر إزاءه بتأثر طيبتى المخيفة دون أن يصبح – فى اللحظة نفسها – أفضل منى. كونوا طيبين فى أعماقكم وسترون أن هؤلاء الذين يحيطون بكم سيصيرون طيبين حتى نفس الأعماق. وليس ثمة ما لا يستجيب بقوة إلى الصرخة السرية للطيبة أكثر من صرخة سرية لطيبة مجاورة. وما دمنا طيبين فعلاً فى الخفاء؛ فإن هؤلاء الذين يقتربون منكم سيفعلون دون أن يدروا أشياء لا يمكنهم أن يفعلوها إزاء أى إنسان آخر. وهنا توجد قوة ليس لها مسمى تتمثل فى منافسة روحية لا تقاوم. وقد يُقال إنه هنا بالضبط توجد أكبر نقطة حسّاسة فى نفوسنا، ذلك لأنه يوجد من بين هذه النفوس نفوس يبدو أنها نسيت أنها موجودة، وبالتالى تخلت عن كل ما يسمو بالكائن، لكن عندما تحتك بهذا المكان تنهض كلها فى المجالات الربانية للطيبة السّرية، وهى أبسط ما فى النفس، ولا يمكن لها أن تتحمل الهزيمة.

ومع ذلك فمن الممكن ألا يتغير شيء في الحياة التي نراها، لكن هل هذا وحده هو ما يعنينا، وهل لا نُوجد نحن حقيقة إلا من خلال الأفعال التي نسيطر عليها، ونقبض عليها بأيدينا مثل حصوات الشارع الكبير.

ولو سأل كل منكم نفسه - كما يُقال - وكما ينبغي أن تتساءلوا كل مساء: «ما الشيء الخالد الذي فعلته اليوم؟». هل نكون دائمًا بجانب الأشياء كي نقوم بالحساب والفكر والقياس دون أخطاء؟ أم يجب أن نبحث عن كل شيء أولاً؟ من المحتمل أن تذرفوا دموعًا غير معتادة تملأون بها قلبًا بأمور مؤكدة غير مسموعة، وأن تجعلوا نفسًا خالدة دون أن يلحظ ذلك أحد، بل ودون أن تلاحظوا أنتم ذلك. ومن المحتمل ألا يتغير شيء، ومن الممكن أن ينهار كل شيء عند المحنة، وأن تنحني الطيبة أمام أقل خوف. وليس ذلك مهمًا. فقد حدث شيء رباني؛ ويتعين أن يبتسم إلهنا في مكان ما. أليس الهدف الأسمى للحياة أن تجعل ما لا يمكن تفسيره فينا يولد من جديد. وهل نعرف ما نضيفه إلى ذواتنا عندما نفوق قليلاً من حالة عدم الفهم التي تنام في كل الأركان؟ إنكم أيقظتم هذا الحب الذي لن ينام بعد ذلك. ووسط أنواع العذاب، لن تحقد عليكم النفس التي نظرت إليها نفسكم، والتي ذرفت معكم الدموع المقدسة من الفرح المهيب، بل لن تكون في حاجة إلى أن تسامحكم، لأنها متأكدة جداً، بشكل لا أعرف كنهه، من أن شيئًا لن يكون بوسعه مستقبلاً، أن يسمح أو يقلل من ابتسامتها الداخلية، ومن أن شيئًا لا يمكنه أن يفرق بين نفسين كانتا اللحظة، «طيبتين معًا».

الفصل الثانى عشر

"الحيـــاة العميقـــة"

من الأفضل أن نُذكّر بأن أكثر الناس بساطة «بوسعه أن يقوم بإبداع شخصية معنوية كبيرة مكونة من أجزاء متساوية، منه ومن المثالية، وذلك طبقًا لنموذج ربانى لا يختاره أحد يعيش مع الحقيقة كاملة. إنه بالتأكيد هو هذا الإنسان البسيط».

ويتعين على كل إنسان أن يجد لنفسه إمكانية خاصة للحياة العليا فى أبسط الأمور وفى الحقيقة اليومية التى لا يمكن تجنبها، ولا يوجد هدف أكثر نبلاً لحياتنا؛ وما يميز البعض عن البعض الآخر يتمثل فى العلاقات بيننا وبين اللانهائية، ولم يعد البطل أكثر عظمة من هذا البائس الذى يسير إلى جانبه إلا فى لحظة ما من وجوده، ذلك لأن لديه ضميرًا أكثر حيوية من أى من هذه العلاقات، وإذا كان من الحقيقى أن الإبداع ليس وقفًا على الإنسان وأن هناك كائنات عليا لا نراها تحيط بنا، فإن هذه الكائنات لا تتفوق علينا إلا لأن لها علاقات مع اللانهائية لا يمكن أن نتشكك فيها.

ويوجد فى حياة كل إنسان يوم انفتحت فيه السماء من تلقاء نفسها، ومن هذه اللحظة تبدأ دائمًا الشخصية الروحية الحقيقية للكائن.

وفى تلك اللحظة أيضًا يتكون بالتأكيد ذلك الوجه الخالد الذى نظهر به - دون أن ندرى - أمام الملائكة والنفوس، لكن بالنسبة لغالبية البشر، لا تنفتح السماء على هذا النحو إلا بالصدفة، ولم يختر البشر الوجه الذى تعرفهم به الملائكة فى اللانهائية، كما أنهم لا يعرفون كيف يجعلون ملامح وجوههم نقية ونبيلة؛ لأنهم لم يولدوا إلا من فرح أو من حزن أو من فزع أو من فكرة عارضة.

ونحن نولد – حقيقة – فى *اليوم الذى* نشعر فيه بعمق ولأول مرة أنه يوجد شىء مهم غير منتظر فى الحياة. ويلاحظ البعض، فجأة، أنهم ليسوا وحدهم تحت السماء. ويلاحظ البعض الآخر – فجأة أيضًا – وهم يقبلون بعضهم أو يذرفون دمعة أن «مصدر كل شىء حسن ومقدس منذ أن بدأ الكون يختبئ خلف ليل ممتلئ بالنجوم البعيدة جدًا». وقد رأى البعض الثالث يدًا ربانية تمتد بين فرحهم وألمهم، وفهم آخرون أن الحق مع الموتى، وشعر واحد بالشفقة وآخر بالإعجاب، وثالث بالخوف. وفى كثير من الأحيان يتعين عمل شىء ما؛ تكفى كلمة أو حركة، أو القيام بشىء صغير لا يعتبر حتى مجرد فكرة. ويقول أحد أبطال شكسبير بشأن عمل أعجب به: «كنت أحبك قبل ذلك مثل أخى، لكنى حاليًا أحترمك مثل نفسى». ومن المحتمل أن يأتى فى يوم ما كائن ما إلى العالم.

ويمكننا – بهذا الشكل – أن نولد أكثر من مرة، وعند كل ميلاد نقترب رويدًا رويدًا من إلهنا، لكننا، جميعًا تقريبًا، نقتصر على انتظار حدث له نور لا يمكن مقاوته يخترق ظلامنا بقوة وينير لنا على الرغم منا، ونحن ننتظر أية صدفة سعيدة تنفتح فيها – صدفة أيضًا – عينا نفسنا فى اللحظة التى يحدث فيها شىء غريب. ومع ذلك ففى كل ما يحدث يوجد نور، ولم يعتبر أعظم الرجال عظماء، إلا لأنهم تعودوا على أن يفتحوا عيونهم لكل ضياء. وهل من الضرورى إذن أن تحتضر أمك بين ذراعيك، وأن يموت أطفالك غرقى، وأن تمرّ أنت نفسك بجانب الموت حتى تعلم أخيرًا أنك فى عالم غير مفهوم توجد فيه أنت دائمًا، ويظل الله الذى لا تراه موجودًا وحده إلى الأبد مع مخلوقاته؟ هل يلزم أن تموت خطيبتك فى حريق أو تختفى تحت بصرك فى أعماق المحيط حتى ترى – للحظة – أن الحدود النهائية لملكة الحب تتجاوز النيرات، التى لا تراها فى "ميرا" "Mira" تقريبًا أو "ألتير" "Altair" أو فى شعر "بيرنيى" "Berenice"؟ ولو كنت قد فتحت عينيك لكان بوسعك أن ترى فى قُبلة واحدة ما تراه اليوم فى كارثة. هل يجب أن يوقظ الألم فجأة حدّ الذكريات الربانية التى تنام فى نفوسنا؟ الواقع أن العاقل ليس فى حاجة إلى هذه *الهزات*. إنه ينظر إلى دمعة أو إلى حركة عفوية أو إلى نقطة ماء تسقط، ويستمتع بفكرة عارضة ويشد على يدى شقيق، أو يقترب من شفاه بعينين مفتوحتين

ونفس منفتحة أيضًا؛ يرى فى كل ذلك باستمرار ما لا يراه غيره إلا للحظة. وستقوم ابتسامة ما بإعلامه دون عناء بما يمكن أن تخبره به إحدى العواصف أو حتى يد الموت.

ما هو إذن ما نسميه – فى الحقيقة – "حكمة"، و"فضيلة"، و"بطولة"، و"ساعات سمو"، و"لحظات عظيمة" فى الحياة، إذا لم تكن هذه اللحظات صادرة من الذات حيث يمكن للمرء أن يتوقف، ولو لدقيقة، على أعتاب أحد هذه الأبواب الخالدة التى ترى فيها أن أصغر صيحة وأشحب فكرة، وأضعف حركة تسقط كلها فى العدم. وحتى لو سقطت فيه، فإن هذا السقوط نفسه من الاتساع بحيث يكفى أن يعطى لحياتنا طابعًا عظيمًا؟ لماذا تنتظرون أن ينفتح الأفق على فرقعة الصاعقة؟ من اللازم أن يكون المرء منتبهًا إلى الدقائق السعيدة التى يفتح فيها نفسه فى صمت، ويفتح فيها ذاته؛ باستمرار إنكم تبحثون عن الله فى حياتكم، وتقولون لنا إن الله لا يظهر. وما هذه الحياة التى توجد فيها آلاف الساعات، التى تماثل ساعة من هذه الدراما المأساوية التى ينتظر فيها الجميع تدخلاً إلهيًا لا يلاحظه أحد، إلى أن تأتى فكرة خفية تعيد وعى أحد الموتى فجأة ويصيح أحد كبار السن، وهو ينتحب من الفرح والخوف قائلاً: "لكنه الله، ها هو الله؟

هل يجب دائمًا أن ينذرنا أحد ألا نستطيع أن نجثوا على ركبتينا إلا إذا وُجِدَ من يقول لنا إن الله يمرّ؟ ولو كنت قد أحببت بعمق، لما تعين على أى شخص أن يجعلك تلاحظ أن نفسك قد أصبحت شيئًا عظيمًا مثل العوالم الأخرى، وأن النجوم، والأزهار وأمواج الليل، وموجات البحر، ليست وحيدة وأن أى شىء لا ينتهى، وكل شىء يبدأ عند عتبة المظاهر، وأن الشفاه التى تقبلها تنتسب إلى كائن أكثر سموًا وجمالاً، وأكثر نقاء من الشخص الذى تحتويه ذراعاك. إنك ترى عندئذ ما لا نراه فى الحياة دون أن نكون سكارى، لكن ألا نستطيع أن نعيش كما لو كنا فى حالة حب دائم؟ إن الأبطال والقديسين لم يفعلوا شيئًا غير ذلك..آه! حقيقة، إننا ننتظر فى الوجود أكثر مما ينبغى، تمامًا مثل عميان تلك الأسطورة الذين قاموا برحلة طويلة ليأتوا للاستماع إلى الله.

كانوا جالسين على درجات السلم، وعندما كان يسألهم أحد عما يصنعون على عتبة المحراب كانوا يجيبون قائلين، وهم يهزون رءوسهم: «إننا ننتظر، ولم يقل الله بعد كلمة واحدة».

ولم ير هؤلاء العميان أن أبواب المعبد الفولاذية كانت مغلقة، ولم يعرفوا أن صوت ربهم كان يجلجل في المبنى. إن إلهنا لا يتوقف لحظة عن الكلام، لكن أحداً لا يفكر في فتح الأبواب قليلاً؛ ومع ذلك، لو أردنا الاحتراز، فلن يكون من الصعب الإنصات إلى الكلمة التي يجب أن يقولها الله مع كل حركة.

ونحن نعيش كلنا في سموّ، ففي أي شيء إذن تريدوننا أن نعيش؟

لا يوجد مكان آخر للحياة؛ والذي ينقصنا هو الانتباه والتأمل وقليل من نشوة النفس، وليست فرص العيش في السماء. وإذا لم يكن عندك إلا غرفة صغيرة، فهل تعتقد أن الله ليس فيها أيضاً، وأنه من غير الممكن أن يعيش فيها المرء حياة سامية إلى حدّ ما.

وإذا كنت تشتكي من الوحدة، ومن أن شيئاً لا يحدث لك، ومن أن أحداً لا يحبك وأنت لا تحب أحداً، فهل تعتقد أن الكلمات ليست خادعة؟ إن من الممكن أن يكون المرء وحيداً، وأن يكون الحب شيئاً نعرفه أو شيئاً نراه، وأن توزن الأحداث كما يوزن ذهب وفضة من يجري فداؤهم. وهل يعتبر الفكر الحي - كبيراً كان أم صغيراً - ما دام نبع من نفسك، إلا فكراً عظيماً.

بالنسبة لك؟ ألا يمكن لرغبة عليا، أو حتى لحظة انتباه جادة للحياة، أن تدخل في غرفة صغيرة؟ وإذا لم تكن تحب ولا يحبك أحد، وتستطيع مع ذلك أن ترى ببعض القوة أن آلاف الأشياء جميلة وأن النفس كبيرة وأن الحياة جادة غير قابلة للوصف، ألا يكون كل ذلك جميلاً بالقدر نفسه كما لو كان الناس يحبونك أو كما لو كنت أنت محبًا؟

وإذا كانت السماء نفسها مختفية عنك فإن الشاعر يقول: «ألا تتسع السماء المملوءة بالنجوم رغم كل شيء لنفسك على هيئة الموت؟ إن كل ما يحدث لنا شيء رباني كبير

لأننا نوجد دائمًا فى وسط عالم كبير، لكن يجب أن نتعود على أن نعيش مثل الملاك الذى نشأ حديثًا أو مثل المرأة التى تحب أو الرجل الذى على وشك أن يموت. ولو كنت تعلم أنك ستموت هذا المساء وستبتعد – بكل بساطة – للأبد، فهل كنت سترى – للمرة الأخيرة – الكائنات والأشياء كما كنت تراها حتى هذا اليوم؟ وهل كنت ستحب أكثر مما أحببت من قبل؟ هل ستزداد حولك طيبة المظاهر أو شرها؟ هل ستكون لديك الموهبة كى تلمح الجمال أو القبح فى النفوس؟ أو ليس كل شىء، بما فى ذلك الشر نفسه والمعاناة، سيتحول عندئذ إلى حب يمتلئ بالدموع الرقيقة جداً؟ وكما قال أحد الحكماء: هل تنزع كل فرصة للتسامح جزءًا من المرارة الأولى أو من مرارة الموت؟ وهل تسير – مع ذلك – الخُطا الأخيرة التى يُسمح بها للمرء، فى لحظات اتضاح الحزن أو الموت، نحو الحقيقة أم نحو الخطأ؟

هل هم الأحياء أم الأموات الذين يعرفون كيف وكيف يكون الحق معهم؟ كم هم سعداء الذين فكروا، والذين تحدثوا، والذين تصرفوا بطريقة حصلوا معها على رضا من سيموتون أو من جعلهم الألم الشديد أصحاب بصيرة! ليس ثمة مكافأة أكثر سهولة لحكيم لم يكن أحد يسمعه فى الدنيا. ولو عشت فى الجمال الغامض فلا تقلق. وتنتهى ساعة من العدالة القصوى، دائمًا، بأن تدق فى قلب كل إنسان، تمامًا كما أن التعاسة تفتح عينين لم يكونا لينفتحا قط. ومن يدرى ما إذا كنت فى هذه اللحظة تمر على روح ميت كما لو كنت تمر على شبح من كان يعرف الحقيقة من قبل؟ ألا يظهر التاج الحقيقى والثمين للحكيم وللبطل ولجميع هؤلاء الذين عرفوا كيف يعيشون بجدية فى الأعالى، وفى أحزان الحياة النقية الخفية للحياة طبقًا للروح، على سرير من يحتضرون؟

ويقول "لافاتير" "Lavater" «إن الموت لا يُجمّل فقط شكلنا الجامد، لكن مجرد التفكير فى الموت يعطى الحياة نفسها شكلاً أكثر جمالاً».

وبالمثل فإن كل فكرة لا نهائية تشبه الموت تجمّل حياتنا، ولا يجب أن ننخدع فى ذلك. وكل إنسان لديه أفكار تمر كالطيور البيضاء الكبيرة على قلبه.

وأسفاه؛ لأن هذه الأفكار لا اعتبار لها لأنها غريبة يندهش المرء من رؤيتها ويبعدها بحركة مشمئزة. ولا تمتلك هذه الأفكار الوقت كى تبلغ حياتنا، ولكى تصبح نفسنا جادة وعميقة، مثل نفوس الملائكة لا يكفى أن نرى الكون فى لحظة رؤيتنا شبح الموت أو الخلود، أو فى نور الفرح أو فى نار الجمال والحب. وقد كان لكل كائن نصيب من هذه اللحظات التى لم تترك فيه سوى حفنة غير مفيدة من الرماد، ولا تكفى الصدفة فى ذلك، بل يجب أن تكون هناك عادة. يجب أن نتعلم كيف نعيش فى الجمال وفى الجدّية المعتادة. وفى الحياة تستطيع أحطّ الكائنات أن تميز تمامًا الشىء الجميل النبيل، الذى ينبغى فعله وإن كان هذا الشىء الجميل النبيل ليس لديه قوة كافية فيهم. ويجب أن نحاول تنمية هذه القوة المجردة الخفية وندفعها إلى الأمام. ولا تزيد هذه القوة إلا عند أولئك الذين اعتادوا أكثر من غيرهم الجلوس على الأعالى حيث تتصل الحياة بالروح، وحيث يرى المرء أن كل عمل وكل فكرة ترتبط حتمًا بشىء عظيم خالد. انظر إلى الناس وإلى الأشياء تبعًا لشكل ورغبة رؤيتك الداخلية، لكن لا تنسى أبدًا أن الظل الذى يصدر عنهم عندما يمرون على تل أو جدار، ليس إلا صورة عابرة لظل أكثر قوة يمتد كجناح بجعة ولا يمحى من أى نفس تقترب من نفسهم. لا تعتقد أن مثل هذه الأفكار تعتبر مجرد زخارف ليس لها أى تأثير على حياة من يقبلونها. وليس مهمًا كثيرًا أن يغير المرء حياته بقدر ما هو مهم أن يلاحظها؛ لأن الحياة تتغير من تلقاء نفسها ما دامت تمت رؤيتها. وتشكل هذه الأفكار التى أتحدث عنها الكنز السرى للبطولة؛ وفى الوقت الذى تجبرنا فيه الحياة على أن نفتح هذا الكنز، نشعر بالدهشة حين نجد أن قوى أخرى غير تلك التى تدفعنا نحو الجمال الكامل. وعندئذ لا يتعين سوى موت ملك كبير ليذكرنا أن العالم لا ينتهى عند أعتاب المنازل، وأن أصغر الأشياء تكفى لتجعل نفسًا نبيلة كل مساء.

ولا يكفى أن تقول لذاتك إن الله كبير وأنك تتحرك فى نوره، لكى تعيش فى الجمال وفى الأعماق الخصبة، حيث يعيش الأبطال. ومن الممكن أن تتذكر صباحًا ومساء أن أيدى جميع القوى الخفية تتحرك فوق رأسك مثل خيمة لها ثنيات لا حصر لها دون أن تلاحظ مطلقًا أقل حركة لهذه الأيدى. يجب أن يكون المرء منتبهًا بالفعل، ويتعين أكثر

من ذلك أن يراقب الميدان العام أكثر مما ينام داخل المعبد. ويوجد الجمال والعظمة فى كل شىء، ويكفى حدوث ظرف غير متوقع حتى نراهما. ويعرف الكثيرون ذلك كما عرفوه كثيراً من قبل: ولم يتسكعوا حول جدار الوجـود، بحثًا عن ثقوب توصلهم لله، إلا تحت ضربات سوط القدر أو الموت، وهم لا يجهلون أن هناك ثقوبًا أبدية فى جوانب أى كوخ، وأن أصغر ألواح الزجاج لا يمكنها أن تنتزع خطًا أو نجمًا من الفضاء السماوى الفسيح، لكن لا يكفى أن نمتلك الحقيقة بل يلزم أن تمتلكنا الحقيقة.

ومع ذلك فنحن فى عالم تكتسب فيه أبسط الأحداث وبدون جهد، جمالاً يتزايد نقاؤه وسموه. وليس هناك ما يختلط ببعضه بسهولة خيراً من الأرض والسماء؛ ولو نظرت إلى النجوم قبل أن تقّبل حبيبتك، فلن تقبلها بالكيفية نفسها التى تقبلها بها لو نظرت إلى جدار غرفتك. وتأكد أنه فى اليوم الذى تتأخر فيه عن متابعة شعاع من الضوء صادر من ثقوب أبواب الحياة، فستكون قد جئت بأمر عظيم يماثل ما يحدث عندما تضّمد جراح عدو؛ لأنه فى تلك اللحظة لن يكون لك عدو.

ويجب أن يعيش المرء فى حمى إلهه؛ لأن الإله يخفى نفسه، لكن لو عرف المرء جوانب مكره، فإن هذا المكر يبدو بسيطًا وبسّامًا. وعندئذ لن يوجد شىء يظهر لنا وجوده، وستكون عظمة حياتنا مرتبطة بأقل الأشياء! وهكذا نجد عند الشعراء بيت شعر هنا أو هناك يفتح لنا فجأة شيئًا عظيمًا، ولم ينطق أحد بأية كلمة مهيبة، وقد يُقال إن شيئًا لم يتم استدعاؤه؛ فلماذا إذن يشير لنا وجه يعلوه البؤس بسبب دموع شيخ كبير؛ ولماذا يحيط هذا الليل، المليء بالملائكة، ببسمة طفل؟ ولماذا نقول لأنفسنا فجأة ونحن نمسك أنفاسنا عندما تنطق نفس منشغلة بأمر آخر، بلا أو بنعم: «هنا يوجد بيت الله، وهنا مداخل السماء؟».

وهذا كله يرجع إلى أن الشعراء كانوا أكثر انتباهاً منا إلى «هذا الظل الذى لا ينتهى».

وفى الحقيقة ليس الشعر السامى إلا كذلك، وليس له هدف آخر سوى أن يفتح «الطرق الكبرى التى تؤدى مما نراه إلى ما لا نراه»، لكن هذا أيضًا هو الهدف

الأسمى للحياة، ومن السهل أن نصل إليه فى الحياة بدلاً من أن نصل إليه من خلال القصائد النبيلة؛ لأنه تعين على القصائد أن تترك جناحى الصمت الكبيرين. ولا توجد أيام قصيرة، ويلزم أن تنزل هذه الفكرة إلى حياتنا وتتحول فيها إلى جوهر، ولا يتعلق الأمر بكون المرء حزينًا؛ لأن الأفراح الصغيرة والابتسامات الصغيرة والدموع الكبيرة، كل ذلك يحتل المركز نفسه فى المكان والزمان. ويمكنك أن تلعب فى الحياة بنفس براءة «طفل حول سرير أحد الموتى»، وليست الدموع هى المطلوبة حتمًا، ذلك لأن الابتسامات والدموع تفتح أبواب العالم الآخر؛ ولتذهب، ولتجىء، ولتخرج، فستجد ما يلزمك فى الظلمات، لكن لا تنس أبداً أنك بالقرب من الأبواب.

* * *

وبعد هذه الدورة الطويلة، أعود إلى نقطة البداية، وهى أنه من «الأفضل أن نذكّر الناس أن أكثرهم ببساطة له القدرة على أن يبدع – طبقًا لنموذج ربانى لا يختاره – شخصية معنوية تتكون من أجزاء متساوية، ومنه نفسه، ومن المثل الأعلى». ولكن هذه الشخصية المعنوية لا يتم إبداعها إلا فى أعماق الحياة، كما أن مخزون المثالية الضرورى لا يزيد إلا بفضل إلهامات ربانية مستمرة. وكل إنسان يمكنه أن يصل بالفكر إلى قمم الحياة الفاضلة ويعرف فى كل لحظة ما ينبغى عليه أن يفعله ليتصرف باعتباره بطلاً أو قديسًا، لكن ذلك ليس هو المهم، بل يجب أن يتحول المناخ الروحى إلى نقطة ما حولنا بحيث نتمكن من أن نشبه تلك البلاد الجميلة فى العصر الذهبى الذى كان يعيش فيه "سويدنبرج" **Swedenbarg**، حيث لم يكن الجو يسمح للأكذوبة أن تخرج من اللسان. وتحدث عندئذ لحظة يسقط فيها أقل شر نريده أن يقع عند أقدامنا، كما تسقط الرصاصة على أسطوانة برونزية، ويتغير كل شىء تقريبًا دون أن ندرى، إلى جمال وحب ويقين، لكن هذا المناخ لا يشمل إلا أولئك الذين عنوا بأن يغيروا هواء حياتهم عن طريق فتح أبواب العالم الآخر قليلاً؛ لأنه من هذه الأبواب نستطيع أن ننظر. وبالقرب من هذه الأبواب نحب؛ لأن حبّ القريب ليس فقط بالاستسلام تمامًا له، لكن بخدمة

ومساعدة وإغاثة الآخرين. ومن الممكن ألا تكون طيبًا ولا جميلاً ولا نبيلاً وسط أكبر التضحيات؛ وربما تكون لدى راهبة الخير، التى تموت بالقرب من سرير مريض بالتيفود، نفس حاقدة، صغيرة وبائسة.

وإذا أحب المرء قريبه فى الأعماق الثابتة، فإن هذا الحب يعنى حب كل ما هو خالد لدى الآخرين؛ لأن القريب جداً هو الذى يقترب أكثر من الله، أى من كل ما هو نقى وطيب عند البشر؛ وعند وقوفك فقط حول الأبواب التى تحدثت عنها الآن، تكتشف كل ما هو ربانى فى النفوس.

وعندئذ يمكنك أن تقول مع "جان بول" "Jean Paul": «عندما أريد أن أحب بكل حنان شخصًا عزيزًا أسامحه على كل شىء، لا أفعل سوى أن أنظر إليه – بعض الوقت – فى صمت» يجب أن نتعلم كيف نرى كى نتعلم كيف نحب. وذات يوم قال لى صديق «لقد عشت أكثر من عشرين سنة فى نواحى أختى، ورأيتها لأول مرة لحظة وفاة أمنا». وكان يتعين أن يفتح الموت هنا أيضًا ويعنف بابًا خالداً حتى تتراءى نفسان فى شعاع من النور الفطرى. فهل يوجد واحد فقط من بينكم أحاطت به أخواته اللاتى لم يرهن؟

ولحسن الحظ، يوجد فى هؤلاء الذين لا يكادون يرون، شيئًا ما يتحرك فى صمت كما لو كانوا يرون ومن الممكن أن يكون المرء طيبًا بقليل من النور؛ لأن الجميع يوجدون فى الظلمات. ولهذا فإنه من المفيد بلا شك أن يبذل المرء جهداً، كى يسمو بحياته ويتجه إلى الأعالى حيث يمكن الوصول إلى استحالة ارتكاب الشر. ومن المفيد أيضًا أن يعوّد المرء عينه على النظر إلى الأحداث وإلى البشر فى مناخ ربانى، لكن ذلك نفسه ليس محتمًا؛ لأن الفارق فى نظر إله ما، يجب أن يبدو صغيراً! ونحن فى عالم تسود فيه الحقيقة فى أعماق الأشياء وفى حيث لا توجد الحقيقة، وإنما يوجد الكذب الذى يحتاج إلى إيضاح. وإذا كانت سعادة أخيك تحزنك فلا تحتقر نفسك، ولن يكون أمامك طريق طويل يتعين عليك اجتيازه كى تجد فى نفسك شيئًا غير محزن، وإذا لم تستطع اجتياز الطريق فلا تهتم، ذلك لأن شيئًا لم يسبب الحزن.

والذين لا يفكرون فى شىء لديهم الحقيقة نفسها التى لدى من يفكرون فى الله، وإن كانت أقل قرباً من عتبة الباب. هذا هو كل شىء. ويقول "رينان" "Renan": «حتى فى الحياة الأكثر شعبية، نجد أن ما يفعله الناس من أجل الله كبير؛ لأن أقل الناس يفضل أن يكون عادلاً ولا يكون ظالمًا، وكلنا نقوم بأداء العبادة وندعو مرات كثيرة فى اليوم دون أن ندرى»، ويشعر الإنسان بالدهشة حينما تُظهر له الصدفة فجأة أهمية هذا الجزء الربانى ويوجد كل شىء حولنا، آلاف وآلاف من فقراء البشر لم يروا شيئًا من الجمال فى حياتهم، يذهبون ويجيئون فى الظلام، ويظنـون أن كل شىء قد مات دون أن يلتفت أحد؛ وكل ما يحدث فى كل يوم لا يتعدى مجرد كلمة، أو صمت غير متوقع، أو دمعة صغيرة تأتى من مصادر الجمال نفسها، وتُعلمنا أن هـؤلاء الفقـراء قد وجدوا وسيلة للسمو فى ظل نفسهم، ومثالية أكثر جمالاً ألف مرة من أجمل الأشياء التى سمعتها آذانهم ورأتها أعينهم. أليست مثاليات الصمت والظلام ونبلها تستحق الإعجاب!

إنكم أنتم الذين توقظكم بسمة الملائكة وتصعدون إلى الله، فى أى أكواخ متعددة وفى أى غرف بائسة وربما فى أية سجون تتغنون فى هذه اللحظة من الدموع ومن الدم الزكى لنفس مسكينة لم تبتسم قط تمامًا مثل أسراب النحل، التى تموت حولها كل الزهور ومع ذلك تقدم لمن ستكون ملكتها عسلاً أثمن ألف مرة من العسل، الذى تعطيه لأخواتها الصغيرة فى الحياة المعتادة... من منّا لم يقابل أكثر من مرة، على طول طرقات الحياة، نفسًا مهجورة لم تفقد مع ذلك شجاعة أن تغذى فى الظلام فكرة أكثر ربانية وأكثر نقاء من كل تلك الأقطار، التى كان لدى كثيرين آخرين فرصة الذهاب للاختيار من بينها فى النور؟ وهنا أيضًا نجد البساطة التى تعتبر الأَمَةَ المفضلة لدى الله، وربما يكفى ألا يجهل بعض الحكماء ما ينبغى فعله حتى يتحرك الباقون، كما لو كانوا هم أيضًا يعلمون.

الفصل الثالث عشر

"الجمــال الداخــلى"

لا يوجد شىء فى العالم أكثر تطلعًا للجمال، ولا يوجد شىء فى العالم يجمّل نفسه بسهولة أكثر من النفس، ولا يوجد شىء فى العالم يسمو بشكل أكثر طبيعية ويعطى لنفسه نُبلاً بسرعة أكبر؛ ولا يوجد شىء فى العالم يستجيب بكل نزاهة للأوامر الشفافة والنبيلة التى يؤمر بها؛ ولا يوجد شىء فى العالم يعانى إلى حد ما من وجود فكرة أسمى من الأفكار الأخرى أكثر من النفس، وهناك أيضًا عدد قليل من النفوس على الأرض تقاوم سيطرة نفس تترك نفسها لتتجمّل.

ويقال حقيقة إن الجمال هو الغذاء الوحيد لنفسنا، التى تبحث عنه فى كل مكان وفى أبسط أنواع الحياة. وهذه النفس لا تموت من الجوع؛ لأنه لا يوجد جمال يمر هكذا دون أن يلحظه أحد تمامًا. ويمكن ألا يمر هذا الجمال مطلقًا إلاّ فى اللاشعور، لكنه ينشط بقوة فى الليل عنه فى النهار. ويُحدث هذا الجمال فى النهار فرحًا لا يمكن إدراكه كثيراً، وهذا هو الفارق الوحيد. وإذا تفحصنا أبسط الناس حين يضىء ظلماتهم قليل من الجمال. سيكونون هناك متجمعين فى أى مكان، وحينما يتجمعون دون أن نعرف لماذا، يبدو أن أول ما يقومون به هو إغلاق بوابات الحياة الكبيرة. ومع ذلك فإن كل واحد منهم عاش أكثر من مرة طبقًا لنفسه حينما كان وحيداً، وربما يكون قد أحب وعانى بالتأكيد، وقد سمع هو أيضًا دون شك «أصوات مكان النعيم البعيد وكذلك أصوات الفزع» وعرف جيداً أمسيات خضع فيها للصمت أمام قوانين أكثر عمقًا من البحر ومع ذلك عندما يكون الناس معًا، فإنهم يحبون أن ينتشوا بأردأ الأشياء.

ولديهم خوف، لا أعرف كنهه، من الجمال، وكلما كانوا أكثر عدداً زاد خوفهم، كما أنهم يخافون بشدة من الصمت أو من الحقيقة المجردة. وهذه حقيقة إلى درجة أنه لو قام واحد منهم فى أثناء النهار بعمل بطولى، فإنه قد يحاول أن يلتمس العذر لقيامه بهذا العمل عن طريق إرجاعه ما قام به إلى دوافع تافهة، أو إلى دوافع يلجأ إليها فى مناطق سفلية يتجمع فيها الناس. ومع ذلك استمع إلى ما يلى: لقد نُطقت كلمة سامية تتسم بالفخر وأعادت إلى حد ما فتح منابع الحياة، وللحظة تجرّأت إحدى النفوس على الظهور، كما هى فى الحب وفى الألم، أمام الموت أو فى ظل الوحدة فى وجود نجوم السماء. وظهر بعض القلق، وشعرت الوجوه بالدهشة أو بالابتسام، لكن ألم تشعر قط فى هذه اللحظات بالقوة الكبيرة التى تُعجب بها النفوس، وأضعفها يوافق - بشكل لا يمكن وصفه - من أعماق سجنه على الكلمة التى رأت أنها تماثلها؟

وهذه النفوس تعيش مرة أخرى فجأة فى جوّها البدائى المعتاد؛ ولو كانت لديك آذان الملائكة فربما كنت ستسمع - وأنا متأكد من ذلك - تصفيقات قوية فى مملكة الأنوار العجيبة التى تعيش فيها الملائكة. هل تعتقد أنه لو نُطقت كلمة مماثلة - كل مساء - ألا تكون أشد النفوس خوفًا أكثر شجاعة، وأن الناس لن يعيشوا إلا بشكل أفضل؟ بل لا يجب أن تعود كلمة مماثلة، لأن شيئًا أكثر عمقًا قد حدث وسيترك آثاراً عميقة جداً، وسيتم التعرف كل مساء على هذه الكلمة التى نُطقت بواسطة أخواتها من النفوس، كما أن مجرد حضورها سيوجد فيما بعد شيئًا عظيماً لا أعرف كنهه فى أشد الكلمات تفاهة. وفى جميع الأحوال سيوجد تغيير لا يمكن تحديده، ولن يكون للأمور السفلية القوة الخاصة نفسها، وستعرف النفوس المنزعجة أن هناك ملاذاً فى مكان ما.

ومن المؤكد أن العلاقات الطبيعية والبدائية بين نفس ونفس هى علاقات جمالية، لأن الجمال هو اللغة الوحيدة لنفوسنا التى لا يمكنها أن تفهم لغات أخرى، ولن تكون لهذه العلاقات حياة أخرى، لأنها لا يمكنها أن تنتج شيئًا آخر ولا يمكنها أن تهتم بشىء آخر، ولذلك فإن كل فكرة، وكل كلمة، وكل فعل كبير وجميل سيُقابل بالترحاب من جانب أكثر النفوس اضطهاداً، بل ربما أقلها مقداراً إذا كان يمكننا أن نقول ذلك.

وليس للنفس عضو يربطها بعنصر آخر، ولا يمكنها أن تصدر حكمًا إلا وفقًا للجمال. وأنتم ترون ذلك كل لحظة فى حياتكم، ومع أنكم أنتم الذين سبق أن أنكرتم الجمال أكثر من مرة، فإنكم تعرفونه جيداً مثل هؤلاء الذين يبحثون عنه دائمًا فى قلبهم. ولو حدث - ذات يوم - أن احتجت بشدة إلى كائن آخر ألن تذهب إلى ذلك الذى ابتسم ابتسامة بسيطة حينما مرّ به الجمال؟ هل ستذهب إلى من دنّس بإيماءة من رأسه عملاً طيبًا، أو حتى مجرد اتجاه شفاف؟ وربما تكون أنت من الذين يوافقون على ذلك، لكن فى هذه اللحظة الجادة التى تدق فيها الحقيقة بابك، ستتجه إلى هذا الآخر الذى عرف كيف ينحنى وكيف يحب، لقد أصدرت نفسك حكمها فى أعماقها، وحكمها الصامت الصحيح الذى يمكن أن يصعد - ربما بعد ثلاثين سنة إلى السطح ويبعث بك إلى نفس شقيقة أكثر التصاقًا بك من ذاتك؛ لأنها كانت أكثر قربًا من الجمال.

ويتعين فعل أشياء قليلة كى نشجع وجود الجمال فى نفس ما، ويجب أيضًا القيام بأمر بسيط كى نوقظ الملائكة النائمة، وربما لا يلزم إيقاظها، لكن يتعين فقط عدم النوم وليس ذلك نهوضًا بل نزولاً يتطلب جهوداً. ألا يتعين بذل جهد كى لا يفكر المرء إلا فى أمور ضئيلة الشأن أمام البحر أو فى مواجهة الليل؟ وما هذه النفس التى لا تعرف أنها توجد دائمًا أمام البحر، ودائمًا أيضًا فى حضور ليل خالد؟ ولو كنا أقل خوفًا من الجمال، لكنا قد وصلنا إلى ألا نجد شيئًا آخر فى الحياة؛ لأنه، فى الحقيقة، لا يرى المرء - تحت كل ما يراه - شيئًا موجوداً إلا ذلك. وكل النفوس تعرف هذا الأمر، وكل النفوس مستعدة، لكن أين هى النفوس التى لا تخفى جمالها؟ لكن ينبغى أن تأخذ واحدة منها زمام «المبادأة» ولماذا لا تكون هناك جرأة من إحدى النفوس على هذه «المبادأة»، وستكون جميع النفوس الأخرى موجودة تتطلع من حولنا مثلما يتطلع الأطفال الصغار إلى قصر عجيب، حيث يتدافعون على أعتابه ويتهامسون وينظرون من خلال الثقوب، لكن لا يجرؤن على دفع الباب، وينتظرون أن تأتى شخصية كبيرة لتفتحه، لكن هذه الشخصية الكبيرة لا تمر أبداً تقريبًا.

ومع ذلك فماذا ينبغى عمله كى يصبح المرء تلك الشخصية الكبيرة المأمولة؟ لا شىء تقريبًا؛ لأن النفوس ليس لها مطالب، والفكرة الجميلة تقريبًا هى تلك التى لا تذكرها،

ومع ذلك فهى الفكرة التى تقوم بتغذيتها فى هذه اللحظة كى تنير لك مثلما تضىء فازة شفافة. وترى النفوس هذه الفكرة وتستقبلك بطريقة أخرى مغايرة لاستقبالها لك كما لو كنت تفكر فى خداع أخيك، ونشعر بالدهشة عندما يقول لنا بعض الناس إنهم لم يقابلوا مطلقًا أى قبح حقيقى، وأنهم لا يعرفون - حتى الآن - معنى كلمة نفس وضيعة لكن ذلك ليس مثيرًا للدهشة، فهم كانوا قد «بدأوا»، لأنهم كانوا هم أول الجملاء وجذبوا إليهم كل جمال كان يمرّ، تمامًا مثل الفنار الذى يجتذب السفن من كل أركان الأفق.

وهناك من يشتكى من النساء على سبيل المثال، ولا يفكرون أنه فى المرة الأولى لمقابلة امرأة تكفى كلمة واحدة، أو فكرة واحدة لإنكار ما هو جميل وما هو عميق؛ كى تسمم وجودك فى نفسها للأبد. وقد قال لى أحد الحكماء ذات يوم: «بالنسبة لى لم أعرف امرأة واحدة لم تمنحنى شيئًا عظيمًا» لقد كان هو أوّلاً عظيمًا، وكان هذا هو سرّه. ولا يوجد سوى شىء لا تتسامح فيه النفس أبدًا وهو أن تضطر النفس إلى أن تنظر إلى عمل ما، أو إلى كلمة أو فكرة قبيحة أو أن تتشاطر فيها أو تحتك بها. ولا يمكن لهذه النفس أن تتسامح فى ذلك؛ لأن التسامح هنا يعنى إنكار ذاتها ورغم هذا فإنه بالنسبة لمعظم الناس لا يعنى كون المرء ماهرًا أو قويًا أو ذكيًا إبعاد نفسه، بادئ ذى بدء، عن حياته، لأن ذلك يعتبر بمثابة إبعاد للاتجاهات شديدة العمق بكل عناية، وأولئك الناس يتصرفون على هذا النحو حتى فى الحب، ولذلك فإن المرأة التى لا تزال قريبة من الحقيقة ليس لديها مطلقًا - تقريبًا - لحظة من الحياة الحقيقية معهم.

وربما يقال إن الناس يخشون الاتصال بالنفس وإن المرء يهتم بأن يظل على بعد ألف فرسخ من جمالها، وعلى العكس يكون من المتعين أن يسير المرء أمام ذاته. فكّر أو قل فى هذه اللحظة أشياء فائقة الجمال حتى تكون هذه الأشياء حقيقة فيك، وبالفعل ستكون حقيقة فى الغد لو حاولت أن تفكر فيها أو تذكرها فى المساء. فلنحاول إذن أن نكون أكثر جمالاً من أنفسنا، ونحن فى ذلك لا نتجاوز نفسنا، ولسنا نخطئ عندما يتعلق الأمر بجمال صامت أو مستتر.

وفضلاً عن ذلك، فمن المهم إلى حدّ ما أن يخطئ المرء أو لا يخطئ ما دامت تأتى اللحظة التى يتضح فيها تماماً المصدر الداخلى، لكن من ذا الذى يفكر إذن فى أن يقوم بأقل جهد لا يراه أحد؟ ومع ذلك فنحن نوجد هنا فى مجال كل شىء فيه فعّال؛ لأن الجميع ينتظرون. وكل الأبواب مفتوحة ولا يبقى سوى دفعها؛ والقصر مملوء بالملكات المقيّدات؛ وفى أحيان كثيرة تكفى كلمة واحدة كى ننظف تلالاً من النفايات. فلماذا إذن لا تكون هناك شجاعة فى إجابة نبيلة عن سؤال وضيع؟ وهل تعتقد أن مثل هذه الإجابة ستمر هكذا دون أن يراها أحد، أو أنها لن تبعث سوى على الاندهاش؟

هل تعتقد أن كل ذلك لا يقترب أكثر من الحوار الطبيعى بين نفسين؟ لا نعرف ما إذا كان هذا الأمر يبعث على التشجيع أو الخلاص. بل إن من يرفض هذه الإجابة سيقوم بخطوة - رغماً عنه - نحو جماله الخاص به؛ لأن الشىء الجميل لا يموت دون أن يطهّر شيئاً ما، فليس هناك جمال يضيع. ولا يجب أن نخشى بذر هذا الجمال فى الطرقات، لأن بذوره ستبقى فيها أسابيع وسنوات، لكنها لن تتحلل أكثر من الألماس؛ وفى نهاية المطاف سيمر أحد ليراها وهى تلمع، ومن يلتقطها سيذهب وهو سعيد. لماذا إذن تكتم فى نفسك كلمة حلوة وسامية؛ لأنك تعتقد أن الآخرين لا يفهمونك؟ لماذا تعرقل لحظة طيبة سامية ناشئة ظنّاً منك أن المحيطين بك لن يستفيدوا منها شيئاً؟

لماذا تكتم لحظة غريزية فى نفسك نحو الأعالى؛ لأنك من أهل الوديان؟ هل يحدث ذلك؛ لأن الشعور العميق يفقد مفعوله فى الظلام؟ وهل ليس لدى الأعمى وسائل أخرى غير العينين يكتشف بها من يحبون ومن لا يحبون؟ هل يحتاج الجمال إلى أن يكون مفهوماً كى يوجد. ومن جهة أخرى، هل تظن أنه لا يوجد فى كل إنسان شىء ما يتجاوز ما يبدو أنه مفهوم، أو يتجاوز ما يعتقده كائن ما؛ إن الجمال سيتوقف عن كونه شيئاً جميلاً ميتاً نريه للغرباء، لكن فجأة تدب فيه حياة كبيرة وتصبح فعاليته طبيعية جداً لا يقاومها شىء. ولهذا لا تفكر فيه وحدك؛ لأنه يتعين أنه ينتبه الطيبون إلى التفكير فيه أيضاً.

وفى الفصل الثامن من الباب الخامس من "الإنياد" "Ennéade"، وبعد أن تحدث عن الجمال «المفهوم» أى الجمال الربانى، يختتم "بولتان" "Plotin" كلامه قائلاً: «بالنسبة لنا نكون جملاء حينما ننتسب إلى أنفسنا، ونكون قبيحين عندما ننزل إلى طبيعة سفليّة، ونكون جملاء أيضًا عندما نعرف أنفسنا وقبيحين حينما نجهلها». لكن يجب ألا ننسى أننا نوجد هنا على جبال ولو تجاهلنا أنفسنا فذلك لا يعنى ببساطة أننا لا نعرف ما يجرى فى ذاتنا عندما نكون فى حالة حب أو غيرة، أو فى حالة خجل أو حقد، أو فى حالة سعادة أو تعاسة. وإذا جهلنا أين نكون، فإننا بذلك نجهل ما يحدث من ربّانية لدى الناس، ونكون قبيحين عندما نبتعد عن الإلهة الموجودة فينا ونصبح جملاء بقدر ما نكتشف هذه الإلهة.

ولكننا لن نجد ما هو ربّانى عند الآخرين إلا حينما نريهم أولاً ما هو ربانى فى ذاتنا، ويلزم أن يشير أحد هذه الإلهة إلى إله آخر، ولسنا فى حاجة إلى أن نقول إنه لا يتوجب سوى وجود شرخ صغير لا يُرى تقريبًا، حتى تنزل المياه من السماء وتدخل إلى نفس ما. وستتجه كل الكنوس عندئذ إلى هذا النبع المجهول؛ وسنكون فى ذلك الوقت فى مكان لا نفكر فيه سوى فى الجمال. ولو كان بوسع أحد أن يسأل أحد الملائكة عما تفعله أنفسنا فى الظلام، فأظن أنه قد يرد على ذلك قائلاً بعد أن ينظر إلى سنوات طويلة تتجاور ما يمكن أن تكون قد أحدثته فى أعين الناس: «إن هذه النفوس ستحوّل أصغر الأشياء التى تُقدم إليها إلى جمال» آه! يجب أن نعترف بأن النفس البشرية لديها شجاعة خاصة! فهى تستسلم للعمل فى الظلام ليلة بأكملها؛ حيث ينساها معظمنا وحيث لا يتحدث إليها أحد. وستفعل النفس فى هذه الليلة ما يمكنها أن تفعله دون أن تشتكى، وستحاول أن تنتزع من الحصوات التى تلقى عليها نواة النور الخالد، الذى ربما تختزنه هذه الحصوات. وبينما هى تقوم بذلك، تنتظر اللحظة التى يمكن فيها أن تُرى - إلى أحب شقيقاتها أو إلى أقربهن إليها بالصدفة - الكنوز التى حصلت عليها بعملها والتقطتها، ورغم هذا توجد آلاف من الموجودات لا تزورها شقيقة واحدة لها؛ وجعلتها الحياة شديدة الحياء إلى درجة أنها تذهب دون أن تقول شيئًا، ولا تحمل أبسط أنواع الزينة التى يتزين بها أبسط الناس، ولو لمرة واحدة، فى تاجها المتواضع.

وعلى الرغم من كل شيء، فإن هذه النفس ترعى كل شيء في سمائها المخفية. فهي تنذر وتحب وتعجب وتجذب وتصدّ. ومع كل حدث جديد، تصعد مرة أخرى إلى السطح وتنتظر إلى أن تضطر إلى النزول؛ لأن الناس يعتبرونها مثيرة للضيق ومجنونة. وهي تتجول مثل "كاسندرا" "Kassandra" تحت أقدام "الأتريد" "Atrides" قائلة باستمرار كلمات ليست صحتها سوى الشبح، ولا يستمع إليها أحد. ولو رفعنا أعيننا، فنرى أن هذه النفس تنتظر شعاعًا من الشمس أو من النجم تصنع منه فكرة أو اتجاهًا لا واعيًا شديد الشفافية. وإذا كانت عيوننا لا تمثل بالنسبة لها شيئًا، فإنها تعرف كيف تحول خيبة أملها المسكينة إلى شيء لا يمكن وصفه تخفيه حتى الموت. ولو كنا نحب فإنها ستنتشي بالنور وراء باب مغلق وتنغلق بالأمل ولا تضيّع الساعات، ويصبح هذا النور الذي تصفّيه الثقوب شيئًا من الطيبة والجمال أو من الحقيقة بالنسبة لها، لكن الباب لا ينفتح (وفي كم من الموجودات ينفتح؟). وتعود النفس إلى سجنها، وربما سيكون أسفها أكبر حقيقة يراها المرء مطلقًا؛ لأننا نوجد في مكانه تغيرات لا توصف، وما لم يتولد من هذه الناحية من الباب لا يكون مفقودًا، لكن لا يختلط بهذه الحياة.

وقد كنت أقول للتو إن النفس تحوّل كل الأشياء الصغيرة التي تعطى لها إلى جمال. بل إنه يبدو – كلما فكرنا في هذا الأمر – أنه ليس لوجود هذه النفس سبب آخر، وأن كل فعاليتها تستخدم في أن تجمع في أعماقنا كنزًا من الجمال، ربما لا نستطيع وصفه. هل لا يتحول كل شيء بالطبع إلى جمال إذا لم نأت لنعرقل باستمرار العمل الشاق الذي تقوم به نفسنا؟

ألا يصبح الشر نفسه ثمينًا حينما نستخرج منه ألماس الندم العميق؟ ألا ينتهي الأمر بأنواع الظلم التي ارتكبتها والدموع التي أسلتها يومًا ما، إلى أن تصبح هي نفسها في نفسك نورًا وحبًا؟

هل حدث أن نظرت إلى ذاتك في مملكة نيران التطهير؟ لقد أصابوك بضرر كبير اليوم؛ وكانت التحركات بسيطة، وكان الفعل منخفضًا وحزينًا، وبكيتَ في ظل القبح. ومع ذلك تعالَ كي تلقي نظرة على نفسك بعد ذلك ببضع سنين، وقل لي إذا ما كنت ترى،

فى ذكرى أىّ فعل، شيئًا ما أكثر نقاء من أى فكرة، وقوة لا يمكن تسميتها ليست لها علاقة مع القوى العادية فى هذا العالم، ومنبعًا لا أعرفه «لحياة أخرى» تنهل منه دون أن ينفد حتى أيامك الأخيرة، رغم أنك لم تقم بمساعدة تلك الملكة التى لا تتعب؛ وكنت تفكر فى شىء آخر بينما كان الفعل ينقّى نفسه دون أن تدرى فى ظل صمت وجودك، ويعمل على زيادة الماء الثمين الموجود فى خزان الحقيقة أو الجمال غير المعكّر، كما يحدث فى الخزّان الأقل عمقًا للأفكار الحقيقة أو الجميلة، والذى يعتبر دائمًا فى مأمن من عواصف الحياة.

ويقول "إيمرسون" "Emerson" إنه «لا يوجد حدث أو واقعة فى وجودنا لا يفقد شكله الخامد عاجلاً أو آجلاً، أو مادته اللاصقة؛ ولا يدهشنا حين يصل إلى أوْجِه فى أعماق جسدنا»، وهذا حقيقى إلى حد كبير؛ لأن "إيمرسون" "Emerson" لم يكن يتوقعه؛ لأنه كلما تقدم المرء فى هذه الأماكن يكتشف آفاقًا أكثر ربّانية.

ولسنا نعلم كنه هذه الفاعلية الصامتة للنفوس التى تحيط بنا، ولقد سبق أن قلت كلمة صافية لكائن لم يفهمها، واعتقدت أنها ضاعت ولم تعد تفكر فيها، إلا أنه ذات يوم - وبالصدفة - برزت الكلمة مع تحولات غير مسموعة بحيث يمكننا أن نرى الثمار غير المنتظرة التى حملتها فى الظلمات؛ ثم سقط كل شىء مرة أخرى فى الصمت، لكن ماذا يهم؟ لقد علمنا أن شيئًا لا يضيع فى نفس ما؛ لأن أصغر النفوس لديها لحظات من العظمة. وليس ثمة خداع فى ذلك، فأتعس الناس وأكثرهم حرمانًا يمتلكون - رغمًا عنهم وفى أعماق وجودهم - كنزًا من الجمال لا يمكنهم الانتقاص منه؛ ذلك لأن الأمر يتعلق فقط بالتعود على النهل من هذا الكنز. ويتعين ألا يظل الجمال مجرد احتفالية معزولة فى الحياة، وإنما احتفالية يومية. ولا يلزم بذل جهد كبير لكى يكون المرء مقبولاً من صفوف «هؤلاء الذين تعتبر الأرض بالنسبة لهم مليئة بالزهور، والسماء لامعة، ليس فى مجرد أجزاء لانهائية منها، لكن فى تراكمات عليا»، وأنا هنا أتحدث عن زهور وعن سماء أكثر دوامًا ونقاءً من تلك التى نراها، وتوجد ألف قناة يصعد بها جمال نفسنا إلى فكرنا، من بينها على وجه الخصوص القناة العجيبة والمركزية للحب.

ألا توجد فى الحب أنقى عناصر الجمال التى يمكن أن نقدمها إلى النفس؟ وتوجد كائنات تحب بعضها بهذا الشكل فى الجمال؛ والحب بهذه الكيفية يعنى افتقاد معنى القبح، أى أن يصبح المرء أعمى لا يرى كل الأشياء الصغيرة ولا يلمح إلا انتعاش وعذرية أبسط النفوس، والحب على هذا النحو يعنى ألا يحتاج المرء إلى أن يتسامح. الحب بهذا الشكل يعنى عدم استطاعة إخفاء أى شىء؛ لأنه لا يوجد شىء مما تقدمه النفس لا يتحول إلى جمال. الحب على هذا النسق يعنى ألا ترى السيئ إلا كى تتسامح فيه وتتعلم ألا تخلط بين من ارتكب الخطيئة وبين خطيئته. الحب على هذا الشكل يعنى أن يرفع المرء فى ذاته كل هؤلاء الذين يحيطون بنا إلى الأعالى؛ حيث لا يمكنهم أن يخطئوا، وبحيث إذا حدث عمل سيئ يتعين سقوطه من أعلى إلى الأرض، فإنه يقدم مع سقوطه نفسه الماسية. الحب بهذه الهيئة يعنى تغيير أصغر النوايا الموجودة حولنا – دون أن نعرف – إلى حركات لا حدود لها. الحب بهذه الطريقة يعنى استعداء كل ما هو جميل على الأرض وفى السماء وفى النفس إلى وليمة الحب. الحب بهذا الشكل يعنى الوجود أمام الكائن كما نوجد أمام الله. الحب بهذه الكيفية يعنى استدعاء وجود المرء وجميع كنوزه عند أقل حركة. وعلى هذا فلم يعد يلزم أن يكون هناك الموت أو الآلام أو الدموع كى تظهر النفس، بل تكفى ابتسامة. الحب على هذا النحو يعنى النظر إلى الحقيقة فى السعادة بعمق يماثل ما يراه بعض الأبطال، حينما تتضح أمامهم أنوار الآلام الكبرى. الحب بهذا النسق يعنى ألا يميز المرء بين الجمال الذى يتحول إلى حب وبين الحب الذى يتحول إلى جمال. الحب هكذا يعنى ألا يمكن للمرء – بعد الآن – أن يذكر أين ينتهى شعاع نجم ما أو فى أى مكان تبدأ قبلة الفكر المشترك. الحب بهذه الطريقة يعنى الوصول قريبًا جدًا من الله وأن تكون الملائكة مستحوذة على المرء. الحب بهذه الكيفية يعنى أن نُجمّل معًا ذات النفس التى تصبح – قليلاً قليلاً – الملاك الوحيد الذى يتحدث عنه "سويدنبرج" "Swedembarg". الحب بهذه الطريقة يعنى أن نكتشف – كل يوم – جمالاً جديداً فى هذا الملاك الغامض. ويعنى أيضًا السير معًا مع طيبة تتزايد وتتدفق بالحيوية والسموّ، خاصة وأنه توجد أيضًا طيبة ميتة لا تُصنع إلا من الماضى،

لكن الحب الحقيقى يجعل الماضى عديم الفائدة، ويخلق عند الاقتراب منه مستقبلاً زاخراً بالطيبة بلا آلام وبلا دموع. الحب هكذا، هو أن يخلّص المرء نفسه ويصبح جميلاً مثل نفسه التى خَلُصت. وبهذا الصدد قال "بلوتان" "Plotin" العظيم أشياء مماثلة: «إذا كان الانفعال الذى يسببه لك هذا المشهد، فى كل الكتابات التى أعرفها، هو الذى يقترب كثيراً من الربّ، وإذا كنت لا تذكر – فى ظل التأثر الذى يسببه لك المشهد – أنه جميل، وإذا لم تشعر، وأنت تُمعن النظر إلى ذاتك وأنت تراه، بفتنة الجمال، فإن بحثك عن الجمال العقلانى – وأنت فى هذه الحالة – سيكون بلا جدوى؛ لأنك قد لا تبحث عنه عندئذ إلا بواسطة كل ما هو غير نظيف وقبيح، وهذا هو السبب فى أن الأحاديث التى ننطق بها هنا لا تكون موجهة لجميع الناس، لكن إذا تعرفت فى ذاتك على الجمال، فارفع نفسك إلى تذكّر الجمال العقلانى».

* * *

المؤلف فى سطور :

موريس ماتيرلنك

- الكاتب البلجيكى والفيلسوف المتصوف موريس مايترلنك (١٨٦٢-١٩٤٩).
- حصل على جائزة نوبل فى الآداب سنة ١٩١١.
- وقد اخترنا أن نقدم هذا الكتاب للقارئ العربى، لأن "مايترلنك" غير معروف كثيراً لدى العرب. وفى هذا الكتاب يقدم - باللغة الفرنسية عملاً ينفتح فيه على كل شيء ونقيضه بأسلوب شديد الرصانة والصعوبة أحياناً، نظراً لاتجاهاته الرمزية والفلسفية والصوفية.

المترجم فى سطور :

الأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد عبد المجيد عفيفى

- أستاذ بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر، رئيس قسم اللغة الفرنسية ووكيل الكلية سابقًا.
- دكتوراه فى اللغة الفرنسية وآدابها من كلية الآداب – جامعة القاهرة.
- حاصل على وسام العلوم والفنون من الحكومة الفرنسية عام ١٩٨٤.
- له العديد من المؤلفات باللغة الفرنسية، وأشرف على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه، وترجم عدداً من الكتب الفرنسية فضلاً عن حضوره لكثير من المؤتمرات المحلية والعالمية.

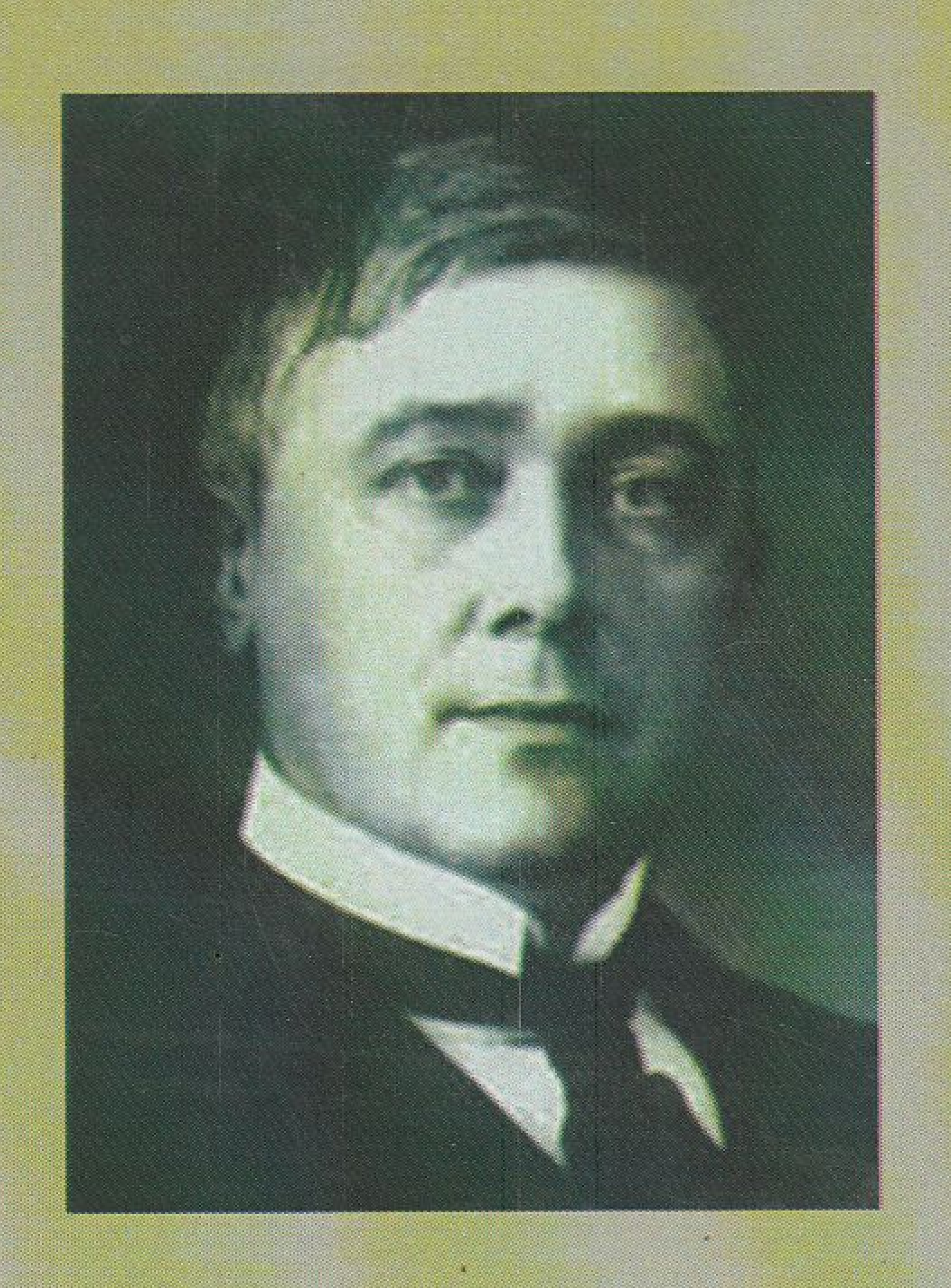
المراجعة فى سطور :

شيرين عبد الحميد على أحمد

- باحثة ومترجمة من اللغة الفرنسية وإليها.
- حاصلة على ليسانس الألسن من قسم اللغة الفرنسية.
- حاصلة على ماجستير الألسن من قسم اللغة الفرنسية فى الأدب والترجمة واللغة بتقدير ممتاز.
- حاصلة على الدكتوراه من كلية الألسن فى اللغة الفرنسية وآدابها.
- سبق لها ترجمة بعض الأعمال الأدبية منها:
  - رواية "شيرى" التى تم نشرها فى المركز القومى للترجمة.

التصحيح اللغوى: صفـــاء فتـحـى
الإشـراف الفنـى: حســـن كـــامل





فى هذا الكتاب "كنز البسطاء"، يحدثنا مايترلنك عن الإخلاص وعن الحب دون أن يحسم ما يحيط بنا من غموض وألغاز، ولا يقدم مايترلنك أى آراء قطعية ولكنه يقدم أفكارا عن المعجزات وعن الفضائل وعن وجود الذات والعواطف والفكر الصافى. وفلسفته فى كتاب كنز البسطاء تعتمد على موهبته فى تحليل الأحاسيس الغامضة التى تتجلى فى علاقات فكرية غير معروفة وتظهر فى كلامه عن الحياة والموت والصدفة والمستقبل وعن الله وعن اللانهائية كما لو كان يطمئن نفسه تجاه القلق والتشاؤم الذى يظهر بصفة خاصة – فى مسرحياته. ويتحرر مايترلنك فى كتابه من القيود التى تعوق الرأى ويبدو فيه وكأنه فى صراع مستمر كى يكتشف النور والحقيقة، وهو فى هذا يطرح أسئلة أكثر مما يقدم إجابات.

والجدير بالذكر أنه عند صدور كتاب كنز البسطاء سنة **1896**، لقى نجاحا كبيرا لأن القراء اكتشفوا فى دراساته موضوعات هامة مثل الصمت وحوار النفوس والمأساة اليومية وغيرها، وهو ما سمح للكاتب أن يركز انتباهه على وجوه معنوية أثرت فيه بعمق.


Bibliotheca Alexandrina
0938008

تصميم الغلاف: نادية كشك